تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الخامس عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء — سورة بنى إسرائيل

هى مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخرهنّ .

وعدد آيها عشر ومائة . أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزُّمَر ، وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى .

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

(١) إنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل .

(٢) إنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة — ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(٣) إنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

(٤) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ــ وهنا ذكر: وتنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين .

(٥) إنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

شرح المفردات

سبحان الله : أى تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، والإسراء كالسرى: السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

الإيضاح

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) أى تنزيها للذى أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته ، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا .

(الذى باركنا حوله) أى الذى جعلنا حوله البركة لسكانه فى معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم .

(لنريه من آياتنا) أى كى نرى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا ما فيه البرهان الساطع والدليل القاطع على وحدانيتنا وعظم قدرتنا .

(إنه هو السميع البصير) أى إن الذى أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سرى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس، البصير بما يفعلون ، لاتخفى عليه خافية من أمرهم ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فهو محيط به علما ومحصيه عددا وهو لهم بالمرصاد ، وسيجزيهم بما هم له أهل .

تحقيق ما قيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

(١) إسراء النبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة .

(٢) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء الله .

آراء العلماء فى الإسراء

هاهنا أمور — مكان الإسراء — زمانه — هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

(١) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام — وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب .

(٢) أما زمانه فقد كان ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن البصرى أنه كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناما ، ولهم على ذلك أدلة :

(أ) إن التسبيح والتعجب فى قوله : سبحان الذى أسرى بعبده - إنما يكون فى الأمور العظام - ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظما .

(ب) إنه لو كان مناما ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كانوا أسلموا ، ولما قالت أم هانئ لا تحدث الناس فيكذبوك ، ولما فضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتُنى فى الحِجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبِتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكُرِبْت كربا ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شئ إلا أنبأتهم به » الحديث .

(حـ) إن قوله (بعبده) يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) إن ابن عباس قال فى قوله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده   وبشر قلبا كان جما بلابله

(هـ) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة سير سليمان عليه السلام : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(ا) إن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رؤيا من الله صادقة ـ وقد ضعف هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره فى مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبى بكر قال : كانت عائشة تقول ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولـكن أسرى بروحه ، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(حـ) إن الحسن قال فى قوله (وما جعلنا الرؤيا) الآية إنها رؤيا منام رآها (والرؤيا تختص بالنوم) .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ماهو مسيرة شهر أو أقل ـ و بعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ـ إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لهـا البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لاتحمل إلا الأجساد اهـ .

والخلاصة — إن الذى عليه المعول عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لامناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله يصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ثم ركب البراق وعاد إلى مكة بغلس .

إلمامة فى المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع كان بجسده وروحه يقظة لا مناما لدليلين :

(ا) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلا بهما .

(ب) الحديث المروى فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(١) إن الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

(٢) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يستدل به على صدقه فى ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك فى وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم .

(٣) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوى فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحى أو يتنفس فيه .

(٤) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء فى غاية البعد :

(ا) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذى يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك فى تطهير القلب عن العقائد الزائفة والأخلاق المذمومة .

(ب) ركوب البراق ولا حاجة له بذلك لأن العالم العلوى فى غنى عن ذلك .

(حـ) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى الله عليه وسلم يتردد بين الله وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام — وهذا غير جائز كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به وهذا بداء محال على الله .

(ى) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوى ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لا الجسمية ، إذ لا يعقل غير هذا — وبهذا يثبت المعراج الروحى لا الجسمانى .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى ككل معجزات الأنبياء من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث واشتماله على أمور غريبة لا حاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاورة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى وإن صححه رواة الحديث باعتبار سنده .

عظة وذكرى

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين لنستخلص منهما أمورا هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(١) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ليمحص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى

دار الهجرة والانضواء تحت لوائه وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من حروب دينية وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقا وغربا .

(٢) إن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أحدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسيح فى أرجاء المعمورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء — فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً »

(٣) إن ما يجدّ كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طى المسافات بوسائل الطيارات وقطع المحيطات فى قليل الساعات من قارة إلى قارة ومن قطر إلى قطر ليجعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(٤) إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

(٥) إن ما جاء فى الحديث من أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى إماما بالأنبياء فى عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة

ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به .

(٦) إن فى هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم — أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لاحربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس ، كما هو المتبع فى القوانين الوضعية فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير وهو يلغى جميع ما سبقه .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة، وكيلا أى كفيلا تكلون إليه أموركم ، شكورا أى كثير الشكر ، وقضينا أى أعلمنا بالوحى ، لتعلن أى لتستكبرن عن طاعة الله ، والوعد أى الموعود به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا الديار: توسطوها وترددوا بينها، والكرة : الدُّولة والغلبة؛ وأصل الكر العطف والرجوع ، والنفير والنافر: من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والتتبير : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ، ما علوا أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير السجن كما قال ابن عباس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس — أردف ذلك بذكر ما أكرم به موسى قبله بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة وأعاد لهم الدولة وأمدهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرى فأعمل فيهم السيف وسلب ونهب وجاس خلال ديارهم فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله وخالف أوامر دينه .

الإيضاح

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) أى وأعطينا موسى التوراة وجعلنا فيها هداية لبنى إسرائيل ، وقلنا لهم : لا تتخذوا من دونى وليا ولا نصيرا تكلون إليه أموركم ، وهذه مقالة أوحى الله بها إلى كل نبى أرسله ، أمرهم جميعا أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وألا يعوّلوا فى أمر إلا عليه .

وقد جاءت هذه الآية عقب آية الإسراء من قِبَل أن موسى أوتى التوراة بمسيره إلى الطور كما أسرى بمحمد إلى بيت المقدس .

ثم نبه إلى عظيم شرف بنى إسرائيل وإتمام نعمته عليهم ، ليكون فى ذلك تهييج لهم وبيان لعظيم المنة عليهم فقال :

(ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) أى يا سلالة ذلك النبى الكريم الذى شمله الله بجميل رعايته وأنجاه من غرق الطوفان بما ألهمه من عمل السفينة التى حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أنتم من حفدة أبنائه ، فتشبهوا بأبيكم واقتدوا به فإنه كان عبدا شكورا أى مبالغا فى الشكر بصرفه كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فاللسان لذكر الله ، والعقل للفكر فيما خلق الله ، والبصر للتأمل فيما صنع الله ، وهكذا بقية الحواس وأعضاء الجسم .

أخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا كان إذا أمسى وأصبح قال (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) » .

وأخرج ابن جرير والبيهقى والحاكم عن سلمان الفارسى قال : « كان نوح إذا لبس ثوبا أو أطعم طعاما حمد الله تعالى فسمى عبدا شكورا » .

وفى هذا إيماء إلى أن إنجاء من كان معه كان ببركة شكره ، وفيه حث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أفظع مراتب الكفر .

ثم بين سبحانه أنه أنعم على بنى إسرائيل بالتوراة ، وجعلها هدى لهم لكنهم لم يهتدوا بها فقال :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلنّ علوّا كبيرا) أى وأوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى فأعلمهم به : لتعصنّ الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله . والثانية قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغنّ على الناس ولتظلمنهم ظلما شديدا تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) أى فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أولى بطش شديد فى الحروب هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا فى البلاد وترددوا بين الدور والمساكن للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وسبوا منكم عددا كثيرا وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لامرد له .

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال و بنين وجعلناكم أكثر نفيرا) أى ثم رجعت لكم الدّولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلوّ، فغزوتم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالكم بعد أن نهبت ، وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها) أى إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره وتركتم نهيه ـ أحسنتم لأنفسكم لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها ؛ أما فى الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ويرد كيده فى نحره ، وينمى

لكم أموالكم ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما فى الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم (ورضوان من الله أكبر) .

وإن عصيتم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه تعالى فيسلط عليكم فى الدنيا أعداءكم ويمكّن منكم من يبغى بكم السوء ، ويلحق بكم فى الآخرة العذاب المهين .

(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) أى فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض بعثنا أعداءكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم (فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة) وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه تدبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيردوس أو خردوس اهـ .

والذى أثبته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولا وخرب بيت المقدس هو بُخْتُنَصّر وكان ذلك فى زمن أرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم بمجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه ـ وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيانوس قيصر الروم وكان بين الإغارتين نحو من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد البعث الثانى إن تبتم وازدجرتم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

(وإن عدتم عدنا) أي وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى - عدنا عليكم بالقتل والسباء وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله فسلطه الله عليهم ، فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقين ، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى إنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابسا لهم لا رجاء لهم فى الخلاص منه .

وخلاصة ذلك — إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم فلا يتخلصون منه أبدا .

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسراء وأكرم موسى بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة - قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب

العظيم ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولا قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك والدمار واللعنة كما يدعو لنفسه بالخير .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بصفات ثلاث :

(١) إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التى هى أقوم السبل وهى ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء التى أهم دعائمها الإخبات لله والإنابة إليه واعتقاد أنه واحد لاشريك له ، وأنه صاحب الملك والملكوت وهو الحى الذى لا يموت ، وهو الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) إنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمر الله وينتهون عما نهاهم عنه ، بالأجر العظيم يوم القيامة كفاء ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح .

(٣) إنه ينذر الذين لايصدقون بالمعاد ولا يقرون بالثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا يتحاشون ركوب المعاصى — بالعذاب الأليم الموجع جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام ، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب لأن بعضهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانيين ، وبعضهم يقول : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهكم كما فى قوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وبعد أن بين حال الهادى وهو الكتاب الكريم بين حال المهدى وهو الإنسان فقال :

(ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أى ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول: اللهم العنى، اللهم أهلكنى، كدعائه ربه بالخير أى بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ، ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا لهلك ، ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه كما قال « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » وفى الحديث «لاتدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئنّ بالليل ، فقالت له مالك تئن فشكا ألم القدّ (سير من جلد غير مدبوغ تربط به يدا الأسير ورقبته) فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال عليه السلام « اللهم اقطع يدها » فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنى سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من أهلى رحمة ، لأنى بشر أغضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها » .

وقد يكون المعنى فى الآية — إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشىء يعتقد أن فيه خيره ، مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص لحقائقها وأسرارها ومن ثم قال :

(وكان الإنسان عجولا) يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره .

وفى الآية إيماء إلى أن القرآن يدعو للتى هى أقوم ، ويأبون إلا التى هى ألوم .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم — قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

الإيضاح

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ، أما فى الدين فلأن كلا منهما مضادّ للآخر ومخالف له مع تعاقبهما على الدوام ، وهذا من أقوى الأدلة على أنه لا بد لهما من فاعل مدبر يقدرهما بمقادير مخصوصة ، وأما فى الدنيا فلأن مصالحه لا تتم إلا بهما ، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش .

(فمحونا آية الليل) أى محونا آية هى الليل أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء كما لا يستبين ما فى اللوح الممحوّ روى ذلك عن مجاهد .

(وجعلنا آية النهار مبصرة) أى وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ومبصرة أى يبصر أهلها فيها .

(لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فعلنا ذلك لتطلبوا لأنفسكم فيه رزقا من ربكم إذ لا يتسنى ذلك فى الليل ، وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئا فشيئا ـ دلالة على أنه ليس للمرء فى تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية ، وفى الخبر « يطلبك رزقك كما يطلبك أجلك » وقيل :

ولقد علمت وما الإشراف من خلقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليــه فيعيينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعنينى

(ولتعلموا عدد السنين والحساب) أى ولتعلموا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدينية والدنيوية، ولتعلموا الحساب أى حساب الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيط به شىء من تلك المصالح إذ لو كان الزمان كله نسقا واحدا لما عرف شىء من هذا كما قال تعالى «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » وقال « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » .

ولا شك أن فى ذكر منافعهما وبيان ما فيهما من الدلالة على وجود الخالق تفصيلا لتلك الفوائد ، لا جرم قال :

(وكل شىء فصلناه تفصيلا) أى وكل شىء لكم إليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم قد فصلناه تفصيلا بينا ، ونحو الآية قوله « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقوله « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

شرح المفردات

طائره ، أى عمله ، سمى به إما لأنه طار إليه من عش الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر الله لا طائرك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن ؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا ، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به وسموه سانحا ، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا، كتابا : هو صحيفة عمله، منشورا، أى غير مطوى، حسيبا ، أى حاسبا أى عادّا يعد عليه أعماله ، والوزر: الإثم والذنب، يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، والمترفون : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، أمرنا مترفيها ، أى أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا، أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، فحق عليها القول، أى وجب لها العذاب ، والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر ، والقرن : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، والعاجلة : الدار

الدنيا ، يصلاها ، أى يقاسى حرها ، مدحورا ، أى مطرودا مبعدا من رحمة الله ، محظورا أى ممنوعا عمن يريده .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه — قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه ؛ ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحدا منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة ، وأعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره وأن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم وبما يستحقون ، ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن وأولئك سعيهم مشكور مقبول عند ربهم ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ؛ وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

الإيضاح

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى وألزمنا كل امرئ عمله الذى يصدر منه باختياره على حسب ما قدر له من خير

أو شر ، لا ينفك عنه بحال ، والعرب تضرب المثل للشىء الذى يلزم بالشىء الذى يوضع فى العنق ، فيقولون جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه ما يزين المرء كالقلائد والأطواق ، أو ما يشينه كالأغلال والأوهاق (الحبال تجرّ بها الدواب) .

وخلاصة هذا — إن كل إنسان منكم معشر بنى آدم ألزمناه نحسه وسعده ، وشقاءه وسعادته ، بما سبق فى علمنا أنه صائر إليـه ، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التى كسبها فى الدنيا ، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف فى تلك الحياة .

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: قال الله يابن آدم بسطنا لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليـوم عليك حسيبا) أى ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا ، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذى عملته فى الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصيانه عليك ، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها ، لا نبتغى عليك شاهدا غيرها ، ولا نطلب محصيا سواها .

وبعد أن ذكر أن القرآن هاد للتى هى أقوم وأن الأعمـال لازمة لأصحابها بين أن منفعة العمل ومضرته راجعة إلى عامله فقال :

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنمـا يضل عليها) أى من استقام على طريق الحق واتبعه ، واتبع الدين الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، فنفسه

قد نفع ، ومن حاد عن قصد السبيل وسار على غير هدى وكفر بالله ورسوله و بما جاء به من عند ربه من الحق فلا يضرنّ إلا نفسه ، لأنه جعلها مستحقة لغضب الله وأليم عذابه .

ثم زاد الجملة الثانية توكيدا بقوله :

(ولا تزرو وازرة وزر أخرى) أى ولا تأثم نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس .

وفى هذا قطع لأطماعهم الفارغة ، إذ كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ، روى عن ابن عباس أن هـــذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم .

ولا منافاة بين هذه الآية و بين قوله : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وقوله : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن الدعاة إلى الضّلال عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، و إثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئا ، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده .

ثم ذكر عنايته ورحمته بهم فقال :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أى وما كنا مهلكى قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل و إقامة الحجة عليهم بالآيات التى تقطع أعذارهم ، و بمعنى الآية قوله تعالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » وقوله : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله لايدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

وخلاصة ذلك — إن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا تعذب أحدا أى نوع من العذاب الدنيوى أو الأخروى على فعل شىء أو تركه إلا إذا أرسلنا رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع وتبلغه دعوته .

قال الإمام الغزالى : الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

(ا) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، وأولئك مقطوع لهم بالجنة .

(ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانَيْنا ، وأولئك مقطوع لهم بالنار .

(حـ) من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا بالدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك ، وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم فى الإيمان به اهـ .

يريد الغزالى بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة ، وعن دينه أخبارا لا تنطبق على حقيقته ، كما يفعل رجال الكنائس فى تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلاق، وأنه كان متهالكا فى حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ، لأنه كان يسجد للكعبة، وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لا يقولون إلا ترهات وأباطيل .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثة الرسل فقال :

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أىّ قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ودنست به أنفسها من الآثام ـ لم نعاجلها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقا لاجتراحهم

السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميرا ولم نبق منها ديارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعا لهم ، وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر — أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطرهم وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها ، إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله صلى الله عليه وسلم « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى مهرة كثر نسلها وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى.

ثم ذكر أن كثيرا من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله — ما لا يخفى .

(وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

يصلاها مذموما مدحورا) أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصليه حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعدا من رحمته مطرودا من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(ا) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلاها أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(ب) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله مذموما .

(حـ) البعد والطرد من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : مدحورا، وفى قوله: لمن نريد، إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريدها ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا ، وربما فاتتهم أيضا .

(٢) (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى ومن أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه ، وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ــ شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن المثوبة ، كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أمورا ثلاثة :

(ا) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وجاء فى الحديث :

« إنما الأعمال بالنيات» ـ إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لاتحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه والإخبات والخشوع له .

(ب) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لامن الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(حـ) أن يكون ذلك وهو مؤمن ، فإن أعمال البر لاتوجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لايحظر على كل من الفريقين فقال :

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى إن كلا من الفريقين مريدى العاجلة ومريدى الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ويوسع عليه الرزق ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضح ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء على أحد فقال :

(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله : « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » وقوله : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات السفلى فى جهنم مصفدا بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم، ففى الصحيحين «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء» وفيهما : « إن الله تعالى أعدّ لعباده الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سُهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان ابن حرب ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب و بلال وأهل بدر وكان يحبهم ، فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لايلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، إنهم دُعوا ودعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ

كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

شرح المفردات

فتقعد : أى فتصير ، مذموما : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، مخذولا : أى من الله لأنك أشركت معه ما لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقضى : أى حكم وأمر ، وأفّ : اسم صوت ينبئ عن التضجر والتألم ويقولون لاتقل لفلان أف أى لاتتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريما : أى جميلا لاشراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم . وخفضُ الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أى من فرط رحمتك عليهما والأوّاب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أى قرناؤهم ، والابتغاء : الطلب ، والرحمة الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، وتبسطها : أى تتوسع فى الإنفاق ، والمحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ويقدر : أى يقتر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق ياقوم ماجدٌ أُعِدّ لأضيافى الشّواء المضهّبَا

والخطء : كالإثم لفظا ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبح ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أى لايتجاوز الحد المشروع فيه ، التى هى أحسن أى الطريق التى هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، والقسطاس : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، والمستقيم : العدل ، والتأويل مايئول إليه الشىء وهو عاقبته ، ولاتقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، والمرح : الفخر والكبر ، لن تخرق الأرض : أى لن تجعل فيها طرقا بدوسك وشدة وطأتك ، والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من رحمة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والوبال، وفريق يريد بعمله طاعة الله،وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة وأن يكونوا مؤمنين — لا جرم فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعيا للآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن حظهم ، ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وبعدئذ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنهما السبب الظاهر فى وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع والمسلمون كلهم إخوة وهم يد على من سواهم ، ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما فيه من إصلاح حال المرء وعدم ارتباكه فى معيشته، وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد فى صلاحهم صلاحها ، ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ويرشد إلى حسنه العقل ، وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم فلا وجه للخوف من ذلك ؛ ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب وفقدان النسل أو قلته ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض ؛ ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيته ، ثم بإيفاء الكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شؤون الفرد والمجتمع ، ثم بالنهى عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم من عبادة الأصنام تقليدا لهم ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ،

ولا فى شىء لم تره ، إنك قد رأيته ، ثم بالنهى عن مشية الخيلاء والمرح لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله ولا الناس ، ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه لا من عند نفسه، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

الإيضاح

(لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) أى لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا فى ألوهته وعبادته ، ولكن أخلص له العبادة وأفرد له الألوهة ، فإنه لا رب غيره ولا معبود سواه ، وإنك إن تجعل معه إلها غيره وتعبد معه سواه تصر ملوما على ما ضيعت من شكر الذى أنعم عليك بنعمه ، وشكر من لم يولك نعمة ، مخذولا لا ينصرك ربك بل يكلك إلى من عبدته معه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

وبعد أن ذكر الركن الأعظم فى الإيمان أتبعه بذكر شعائره وهى الأمور الآتية فقال :

(١) (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) أى وأمر ربك ألا تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، ولا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وقد أمر الله بالإحسان إليهما للأسباب الآتية .

(ا) شفقتهما على الولد وبذل الجهد فى إيصال الخير إليه وإبعاد الضر عنه جهد المستطاع ، فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

(ب) إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء فى الخبر أنه عليه السلام قال : « فاطمة بَضعة منى » .

(ح) إنهما قد أنعما عليه وهو فى غاية الضعف ونهاية العجز ، فوجب أن يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما كما قال الشاعر العربى يعدّد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

غذوتك مولودا و مُنْتُك يافعا تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طُرِقت به دونى فعينىّ تُهمل
تخاف الردى نفسى عليك و إنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلتَ جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوّتى فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل

والخلاصة — إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ثم نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أوّلا بقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، ثم أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله: و بالوالدين إحسانا .

ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله :

(إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله — وجب عليك أن تشفق عليهما وتحنو لهما وتعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه، و يتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الخمسة الآتية :

(ا) ألا تتأفف من شىء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ، ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر عليه كما صبرا عليك فى صغرك .

(ب) ألا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر القليل أو الكثير .

(حـ) أن تقول لهما قولا حسنا وكلاما طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه المروءة كأن تقول ياأبتاه و ياأماه ، ولا تدعوهما بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تحدق فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى الهداج قال : قلت لسعيد بن المُسَيِّب : كل ما ذكر الله تعالى فى القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ، فقال ابن المسيِّب : قول العبد المذنب للسيد الفظّ .

(ء) أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله ، رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة ، ولله در الخفاجى إذ يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتى ما حال من يسأل من سائله
ما ذِلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله

وقوله: من الرحمة، أى أن يكون ذلك التذلل رحمة بهما، لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط ، فتذكّر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، و بما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك حال صغرك .

(ه) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كفاء رحمتهما لك فى صغرك وجميل شفقتهما عليك .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا .

وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها :

(١) إن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد معه فقال : أحىّ والداك ؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهد .

(٢) ما رواه مسلم وغيره ـ لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه و يعتقه.

(٣) ما روى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ العمل أحب إلى الله ورسوله ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أىّ ؟ قال بر الوالدين ، قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله .

و بر الأم مقدم على بر الأب لما روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك .

ولا يختص برهما بحال الحياة ، بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقى من بر أبوى شىء أبرّهما به بعد موتهما ؟ قال نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهذا الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما .

والخلاصة ــ إنه سبحانه بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ منها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعهما بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن

يذل ويخضع لهما ، ثم ختمها بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه الخمسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بهما مقرونة بوحدانيته وعدم الشرك به .

ولما كان بر الوالدين عسيرا حذر من التهاون فيه فقال :

(ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) أى ربكم أيها الناس أعلم منكم بما فى نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم والبر بهم ، ومن الاستخفاف بحقوقهم والعقوق بهم ، وهو مجازيكم على حسن ذلك وسيئه ، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا وتعقدوا لهم فى نفوسكم عقوقا ، فإن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم وأطعتم ربكم فيما أمركم من البر بهم والقيام بحقوقهم عليكم بعد هفوة كانت منكم أو زلة فى واجب لهم عليكم ، فإنه تعالى يغفر لكم ما فرط منكم ، فهو غفار لمن يتوب من ذنبه ويرجع من معصيته إلى طاعته ويعمل بما يحبه ويرضاه .

وفى هذا وعد لمن أضمر البر بهم ووعيد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوقهم .

وبعد أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى فقال :

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى وأعط أيها المكلف القريب منك حقه من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن العشرة ، وإن كان محتاجا إلى النفقة فأنفق عليه مايسد حاجته ، والمسكين ذا الحاجة ، وابن السبيل وهو المسافر لغرض دينى ، فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

ولما رغب سبحانه فى البذل بين الطريق التى تتبع فى ذلك فقال :

(ولا تبذر تبذيرا) أى ولا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال فى معصيته تفريقا بإعطائه من لا يستحقه ونحو الآية قوله « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة

فرفع رأسه إلى أبى قبيس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله بسعد وهو يتوضأ ، فقال ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أوفى الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار » .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طُهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال يا رسول الله : أقلل لى ، قال فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، فقال حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها » .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة كما قال « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال « احْشُرُوا الذينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» أى قرناءهم من الشياطين .

(وكان الشيطان لربه كفورا) أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه

جحودا لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه المبذرون أموالهم فى معاصى الله لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران ، قال الكرخى وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل اهـ .

وفى ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه فى غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن ترد عليهم انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا لينا جميلا وعدهم وعدا تطيب به قلوبهم ، قال الحسن : أُمِر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شىء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟ ، ولقد أحسن من قال :

إلا يكن ورق يوما أجود به ... للسائلين فإنى ليّن العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى ... إما نوال وإما حسن مردود

ثم بين سبحانه الطريق المثلى فى إنفاق المال فقال :

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)

أى لا تكن بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئا ، ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك،وتخرج أكثر من دخلك ، فإنك إن بخلت كنت ملوما مذموما عند الناس كما قال زهير :

ومن يك ذا مال فيبخل بمـاله   على قومه يستغن عنه ويذمم

ومذموما عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالك وقد أوجب الله عليك سد حاجتهما باعطاء زكاة أموالك .

وإن أسرفت فى أموالك فسرعان ما تفقدها فتصبح معسرا بعد الغنى ، ذليلا بعد العزة ، محتاجا إلى معونة غيرك بعد أن كنت معينا له ، وحينئذ تقع فى الحسرة التى تقطع نياط قلبك ويبلغ منك الأسى كل مبلغ ، ولـكن أنَّى يفيد ذلك وقد فات ما فات فلا ينفع الندم ولا تجدى العظة والنصيحة .

وخلاصة ذلك — اقتصد فى عيشك وتوسط فى الإنفاق ، ولا تكن بخيلا ولا مسرفا ، روى أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » وروى عن أنس مرفوعا : «التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » . وقيل حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف .

وإجمال المعنى — لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة عن الانبساط ، ولا تتوسع فى الانفاق فتصير نادما مغموما وعاجزا عن الانفاق لا شىء عندك ، فتكون كالدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا وإعياء .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذى يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله ولـكن لمشيئة الخالق الرازق فقال :

(إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه على حسب السنن

التى وضعها لعباده فى كسب المال وحسن تصرفهم فى جمعه بالوسائل والنظم التى وضعها فى الكون .

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إن ربك ذو خبرة بعباده ، فيعلم من الذى تصلحه السعة فى الرزق ومن الذى تفسده ؟ ومن الذى يصلحه الإقتار والضيق ؟ ومن الذى يفسده ؟ وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم ، فعليك أن تعمل بما أمرك به ونهاك عنه من بسط يدك فيما تبسط فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه ، فهو أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق ، وأبصرهم بتدبير شؤونهم .

وقصارى ذلك — إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأنعمتم فى النظر فى ذلك وجدتم أن من سننه تعالى الاقتصاد ، فاقتصدوا واستنوا بسنته .

وبعد أن بين أنه تعالى الكفيل بالأرزاق وهو الذى يبسط ويقدر نهاهم عن قتل الأولاد خشية الفقر فقال :

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أى لا تئدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم .

وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء وفى ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة — إن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال :

(إن قتلهم كان خطئا كبيرا) أى إن قتلهم كان إثما فظيعا لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : «قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندّا وهو الذى خلقك ، قلت ثم أىّ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك ، قلت ثم أىّ ؟ قال أن تزانى بحليلة جارك» .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، و إن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمة أوامر الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما كان فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه به فقال :

(ولا تقربوا الزنا) نهى الله عباده عن القرب من الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلا عن مباشرته هو للمبالغة فى النهى عنه و بيان شدة قبحه ، ثم علل ذلك بقوله :

(إنه كان فاحشة وساء سبيلا) أى إنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفاسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهها ، و إذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره لايقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرْج والمرْج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا وشهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها و بين الأزواج ، ولا يتم السكن والازدواج الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصيرشريكة للرجل فى ترتيب المنزل و إعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لاتتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

وإجمال ذلك — إن الزنا فاحشة وأى فاحشة لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا عن العرض ، وإنه سبيل سيء من قِبَل أنه يسوّى بين الإنسان والحيوان فى عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال :

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) أى لا تقتلوا النفس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمدا كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

والسبب فى هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد فوجب حرمته لقوله : « وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ » .

(٢) إنه ضرر ، والأصل فى المضارة الحرمة لقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » .

(٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود فقتل القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب فى المجتمع فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

(ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى ومن قتل بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه، وإما الدية لقوله تعالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى » الآية ولقوله عليه السلام يوم الفتح « من قتل قتيلا فأهله بين خِيرَتين ، إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا الدية » .

(فلا يسرف فى القتل) أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا ، وأحيانا لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله رجلا شريفا

وفى الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .

(إنه كان منصورا) أى إن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : إن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفى الآخرة بتكفير خطاياه و إيجاب النار لقاتله ، وهذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل لأنها مكية .

و بعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ولذلك قال :

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد به حتى تستحكم قوة عقله وشبابه و إذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطونهم فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » .

و بعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر فقال :

(١) (وأوفوا بالعهد) أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، و يدخل فى ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم و بعض ، والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

(إن العهد كان مسئولا) أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفيت به ، كما يقال لوائد الموءودة بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ؟ » والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٢) (وأوفوا الكيل إذا كلتم) أى وأتموا الكيل للناس ولا تخسروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قِبَلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان العدل دون شىء من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها .

ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال :

(ذلك خير) أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم وحب الثناء عليكم .

(وأحسن تأويلا) أى وأجمل عاقبة لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا وحصل لهم الثروة والغنى وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال :

(١) (ولا تقف ما ليس لك به علم) أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة :

(ا) قال ابن عباس : لاتشهد إلا بما رأت عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لاتقل سمعتُ ولم تسمع ، ولارأيتُ ولم تر ، ولاعلمت ولم تعلم.

(حـ) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال : « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » وفى الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفى سنن أبى داود « بئس مطية الرجل زعموا » إلا ماقام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة كما رخص النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك لمُعاذ حين بعثهُ قاضيا فى اليمن إذ قال له «بم تقضى ، قال: بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى » .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعا للهوى كما قال : « إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ » .

ثم ذكر سبحانه تعليلا لذلك النهى فقال :

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى إن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وفى الخبر عن شكل بن حُميد قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدى ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر قلبى وشر منيى » (يريد الزنا) .

(٢) (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى ولا تمش متبخترا متمايلا كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم همُ منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومَنْعة ... فكم مات من قوم همُ منك أمنع

وخلاصة ذلك — تواضع ولا تتكبر فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر . ولا يخفى ما فى الآية من التقريع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها من الجعل مع الله إلها آخر وعبادة غيره والتأفف والتبذير وغل اليد وقتل الأولاد خشية الأملاق — مكروها عند ربك أى مبغوضا عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال صلى الله عليه وسلم « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر ـ إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر وترك تلك النواهى فقال :

(ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا (لا تجعل مع الله إلها آخر) الآية .

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) كرر هذا مع ما سلف للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة وهو مبدأ الأمر ومنتهاه، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال: فتقعد مذموما مخذولا ، ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

وأنت قد علمت فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة ، و إما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا (٤٤) .

شرح المفردات

الإصفاء بالشىء : جعله خالصا له ، وصرفنا : أى بينا ، ليذكروا : أى يتدبروا و يتعظوا ، والنفور: البعد من الشىء ، وابتغاء الشىء : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم .

المعنى الجملى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندّا ونظيرا — قفى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قِحَتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا لله البنات مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له — ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

الإيضاح

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟) أى أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد واتخذ من الملائكة إناثا وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم بل تئدونهن وتقتلونهن فتجعلون له ما لا ترضون لأنفسكم .

وخلاصة ذلك — إنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم عبدوهن ، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما ، ومن ثم قال :

(إنكم لتقولون قولا عظيما) فتفترون على الله الكذب وتنسبون إليه ما تستحقون عليه الإثم والعذاب ، وتخرقون قضايا العقول ، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على جعل عالى الأرض سافلها إناثا غاية فى الرخاوة .

ونحو الآية قوله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ

وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » .

ولما كان هذا الكلام غاية فى الوضوح والبيان ، ولا يخفى فهمه على إنسان ، ثم هم بعد ذلك أعرضوا عنه نبه إلى ذلك بقوله :

(ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) أى ولقد بينا فى هذا القرآن الآيات والحجج وضربنا لهم الأمثال وحذرناهم وأنذرناهم ليتذكروا ويتعظوا فيقفوا على بطلان ما يقولون — فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس — وهم مع ذلك لا يعتبرون ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنذر بل ما يزيدهم التذكير إلا نفورا وبعدا عن الحق وهربا منه .

ثم رد على هؤلاء الذين يشركون بربهم ويتخذون الشفعاء والأنداد وندد عليهم وسفه أحلامهم فقال :

(قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر : لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون لديه الوسيلة ، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة رسله وأنبيائه ونزه نفسه عن ذلك فقال :

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) أى تنزيها لله وعلوّا له عما تقولون أيها القوم من الفرية والكذب ، فهو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وفى الآية إيماء إلى وجود البون الشاسع بين ذاته وصفاته سبحانه ، وبين ثبوت

الصاحبة والولد والشركاء والأضداد ، للمنافاة التى لاغاية وراءها بين القديم والمحدث والغنىّ والمحتاج .

ثم بين سبحانه عظمة ملكه وكبير سلطانه فقال :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وألوهته كما قال أبو نواس :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبح ربه إما بالقول كقوله : سبحان الله ، وإما بدلالة أحواله على توحيد الله وتقديسه ، وغير العاقل لايسبح إلا بالطريق الثانى ، فهى تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن الحدوث فإن الأثر يدل على مؤثره .

(وإن من شىء إلا يسبح بحمده) أى وما شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله أى يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزهه عن لوازم الحدوث .

والخلاصة — إن كل الأكوان شاهدة بتنزهه عن مشاركته تعالى للمخلوقات فى صفاتها المحدثة .

(ولكن لاتفقهون تسبيحهم) أى ولكن لاتفهمون أيها المشركون تلك الدلالة ، لأنكم لما جعلتم مع الله آلهة فكأنكم لم تنظروا ولم تقروا ، إذ النظر الصحيح والتفكير الحق يؤدى إلى غير ما أنتم فيه ، فأنتم إذاً لم تفقهوا التسبيح ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق .

(إنه كان حليما غفورا) فمن حلمه أن أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم بالله سواه وعبادتكم معه غيره ، ومن مغفرته لكم أنه لايؤاخذ من تاب منكم . أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : «إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء» .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) .

شرح المفردات

الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، والمستور : أى الساتر كما جاء عكسه من نحو ماء دافق : أى مدفوق ، أن يفقهوه أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الآذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا أى مخبول العقل، فهو كقولهم : إن هو إلا رجل به جنة ، فضلوا : أى جاروا عن قصد السبيل .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى مقام الألوهية وجدالهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم وإقامة الحجة عليهم وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبى صلى الله عليه وسلم وقولهم فيه تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون ، وحينا إنه شاعر .

روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول

محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشىء ، وقال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العُزّى هو شاعر فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أى وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب ـ جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منا لهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم واجتراحهم الجرائر والمعاصى التى تظلم القلوب وتضع عليها الأغشية وتستر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه ، وأسراره وأحكامه وحكمه ، ومواعظه وعبره .

روى أنه عليه السلام كان إذا قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَىّ يصفقون ويصفِرون ويخلّطون عليه بالأشعار .

ثم بين السبب فى عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال :

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إنه تعالى جعل فى قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم ما يمنع من سماع صوته .

وخلاصة ذلك ـ إنا منعناهم فقهه ، والوقوف على كنهه ، فنبت قلوبهم عن فهمه ، ومجته أسماعهم ، فهم لامتناعهم عن قبول دلائله صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب ساتر .

ونسب الحجاب إلى نفسه ، لأنه خلاهم وأنفسهم ، فصارت تلك التخلية كأنها السبب فى وقوعهم فى تلك الحال ؛ ألا ترى أن السيد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتى ساءت حاله ، يقول أنا الذى أوصلك إلى هذا إذ ألقيت حبلك على غاربك ، ولم أراقبك عن كثب .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » .

(وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) أى وإذا ذكرت ربك وحده فى القرآن وأنت تتلوه ، ولم تقل واللات والعُزَّى انفضوا من حولك وهربوا نافرين استكبارا واستعظاما لأن يذكر الله وحده .

(نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزء والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتساروّن ، فبعضهم يقول مجنون ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول : ما اتبعتم إلا رجلا قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء ، وهل من خير لكم فى اتباع أمثاله المجانين.

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى تأمل وانظر أيها الرسول ، كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فحادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه .

وفى هذا من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) .

شرح المفردات

الرفات : ما تكسر وبلى من كل شىء ، يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رءوسهم : أى سيحركونها

استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض نغضا إذا تحرك ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، فتستجيبون : أى تجيبون الداعى .

المعنى الجملى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات ، والنبوات ، والبعث والجزاء ، والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه، ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وتصديق ما يقول .

الإيضاح

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاما فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلينا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا ــ خلقا جديدا كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا على أى حال كانوا عظاما أو رفاتا أو حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

(قل كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) أى قل كونوا حجارة

أو حديدا أو خلقا مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لايعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاما بالية وقد كانت قبلُ حيّة ، والشىء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد .

وخلاصة هذا ــ إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء ، وهذا كما يقول القائل للرجل : أتطمع فىّ وأنا فلان ؟ فيقول : كن ابن من شئت ، كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى ــ إن هذا مبالغة أيما مبالغة فى قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال لو كنت عين الحياة فالله يميتك ، ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

و بعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هـذه الحال حجارة أو حديدا من أى معيد . كما حكى عنهم بقوله :

(فسيقولنا من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة) أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقا للحق و إزاحة للاستبعاد و إرشادا إلى طريق الاستدلال : الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولامنهاج معين ينتحى ، وكنتم ترابا لم يشَمَّ رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية و يعيدها إلى ما كانت عليه أولا ؟ بلى إنه سبحانه على كل شىء قدير .

ثم بين جلت قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال :

(فسينغضون إليك رءوسهم) قال أبو الهيثم يقال لمن أُخْبِر بشىء فحرك رأسه إنكارا له : قد أنغض ، أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكذيبا ، ثم يسألون .

(ويقولون متى هو ؟) أى متى هذا البعث ، وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقا جديدا كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقوله « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

(قل عسى أن يكون قريبا) أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحدا من خلقه ، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، لكن الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ولله الحمد فى كل حال ، وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله أى ولله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعا « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا فى القبر ولا فى الحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب ، يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

(وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم ما أقمتم فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ونحو الآية قوله « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقوله « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ

يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) .

شرح المفردات

ينزغ : يفسد ويهيج الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك ، فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : قل الذى فطركم أول مرة ـ أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار ، فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على الإسلام ، فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن فى السموات والأرض فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

الإيضاح

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم ، الكلام الأحسن للاقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ، ذلك أن رجلا شتمه فسبه عمر وهمّ بقتله فكادت تثير فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن الشيطان ينزغ بينهم) أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال ، ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولايشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار » وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى رَفْلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى هاهنا ووضع يده على صدره » .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله :

(إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان « ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » وقال « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

ثم فسر سبحانه التى هى أحسن بمـا علمهم من النصفة بقوله :

(ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم بتوفيقكم للايمـان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلـكم عن الإيمان فتموتوا على شركـكم .

وفى هذا إيمـاء إلى أنه لاينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله ــ إلى أن ذلك ممـا يجر إلى توليد الضغينة فى النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال :

(وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا تقسر الناس على ما يرضى الله ، وإنمـا أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ، ومر أصحابك بذلك ، فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوى الأفئدة ، ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال :

(وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) وبأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فيختار منهم لنبوته والفقه فى دينه من يراه أهلا لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته . ونحو الآية قوله « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفى هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبيا ، وأن يكون أولئك الجوّع العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفى ذكر من فى السموات ردّ لمقالهم حين قالوا «لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ » وفى ذكر من فى الأرض رد لمقالهم حين قالوا « لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بمـا لهم من الفضائل النفسية ، والمزايا القدسية ، وإنزال الـكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة ومزية ، ففضلنا

إبرهيم باتخاذه خليلا ، وموسى بالتكليم ، ومحمدا بالقرآن الذى أعجز البشر والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الأحزاب فى قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أفضل من بقيتهم ، ولا خلاف فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

(وآتينا داود زبورا) أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك ، بل كان بما آتاه الله من الكتاب ، وأفرده بالذكر لأنه كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) .

شرح المفردات

الزعم : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، لايملكون : أى لا يستطيعون كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، يدعون : أى ينادون ، الوسيلة : القربة بالطاعة والعبادة ، محذورا : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، فى الكتاب : أى فى اللوح المحفوظ ، والآيات : هى ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ومبصرة : أى ذات بصيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها فظلموا بها : أى فكفروا بها وجحدوا ، أحاط بالناس : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، والرؤيا هى ماعاينه صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة : هى شجرة الزقوم ، والطغيان : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعونى وحدى لأنى أنا المالك لنفعكم وضرهم دونهم ؛ ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى

واغتنام الأموال وأخذ الجزية ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أولم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ، ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم ، كما كان ذكر شجرة الزقوم فى قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » ثم تلا هذا بذكر تماديهم فى العناد وأنه كلما خوفهم وأنذرهم ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوهما ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم؟ إنهم لا يقدرون على دفع شىء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم ، روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية .

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أى هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم ـ يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة. أخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ؟ ثم قرأ هذه الآية » .

(أيهم أقرب) أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه ، وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم ، فكيف تعبدونهم ؟ .

(ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أى ويرجون بأعمالهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال :

(إن عذاب ربك كان محذورا) أى عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال :

(وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وقال : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً » وقال : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » الآية .

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب القدر وماهو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هى سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هـذا العذاب على هذه الأمة لا يكون، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم ، فلم يجبهم إلى ماطلبوا ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصة — إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .

روى أحمد عن ابن عباس قال : «سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال بل نستأنى بهم وأنزل الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية » .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم فقالوا لانريدها» .

ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب ، فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال :

(وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناها ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها ، فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رُجفت (زلزلت) فى عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه ، وروى أن المدينة زلزلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ، وفى الحديث الصحيح « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ــ ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »

ثم قال سبحانه محرضا رسوله على إبلاغ رسالته ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس.

(وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته ، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك ، فلا يقدرون على إيصال الأذى إليك كما قال : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وخلاصة ذلك — إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه . قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) أى وما جعلنا الرؤيا التى أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختبارا للناس فأنكرها قوم وكذبوا بها وكفر كثير ممن كان آمن به ، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة ، والعرب تقول رأيته بعينى رؤية ورؤيا .

(والشجرة الملعونة فى القرآن) أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس، فإنهم حين سمعوا : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ » اختلفوا فقوم ازدادوا

إيمانا ، وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل قال : إن ابن أبى كبشة (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : إن محمدا يخوفنا بالزقوم وما الزقوم إلا التمر والزُّبْدُ ، فتزقموا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لاتحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لاتؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامس النار نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثاليا ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو ⅓ منه أكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين ، فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة .

وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، للعن الكفار الذين يأكلونها ، توسعا فى الاستعمال وهو كثير فى كلام العرب .

(ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ، فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التى اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا فى الأرض ، ونفعل بهم مافعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطامة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة ، من الحزن لطعن الكفار إذ ر بما يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بمثل هذه المعجزات التى أتى بها من قبلك من الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) .

شرح المفردات

أرأيتك : أى أخبرنى ، هـذا الذى كرّمت على : أى أهذا الذى كرمته على . قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكنّ من قولهم حنك الدابة واحتنكها: إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، اذهب : أى امض لشأنك فقد خليتك وماسوّلت لك نفسك ، وموفورا : أى مكملا لايدخر منه شىء من قولهم فِرْ لصاحبك عرضه فِرَة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لايتق الشتم يشتم

ويقال أفزّه الخوف واستفزه : أى أزعجه واستخفه ، بصوتك : أى بدعائك إلى معصية الله ، وأجلب عليهم : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، ويقال أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه « ياخيل الله اركبى » والرَّجْل : واحده راجل كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، والوكيل : الحافظ والرقيب.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسدا على ما آتاه الله من النبوة ، وكبرا عن أن ينقادوا إلى الحق ــ بين أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت ؛ ألا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر ؛ والحسد بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق .

الإيضاح

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر. الإسراء . الكهف . طه . ص . وقد تقدم الكلام فيها فيما سلف من تلك السور؛ وها نحن أولاء نفسرها فى هذه السورة .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له وقال أأسجد لمن خلقته من الطين وأنا مخلوق من النار كما جاء فى الآية الأخرى : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فكفر بنسبة ربه إلى الجور بتخيله أنه أفضل من آدم من قبل أن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وقد فاته أن الطين أنفع من النار ؛ ولئن سلم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد ، والله هو الذى أوجدها من العدم ، ويفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض .

و (قال) أيضا لربه جرأة وكفرا والرب يحلم وينظر .

(أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟) أى أخبرنى أهذا الذى كرمته على ؟ وهل يوجد مايدعو إلى تفضيله على ، وهذا كلام قاله على وجه التعجب والإنكار .

(لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) أى لئن أنظرتنى لأضلنّ ذريته إلا قليلا منهم ، وهذا القليل هم الذين عناهم الله بقوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ولعل إبليس حكم هذا الحكم على ذرية آدم إما بالسماع من الملائكة حين قالوا « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » أو بالقياس على ما رأى من آدم حين وسوس له فلم يجد له عزما .

ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النظرة وأخره إلى يوم الوقت المعلوم .

(قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أى قال له سبحانه : امض لشأنك الذى اخترته ، ولما سولته لك نفسك ، وقد أخرتك ، وهذا كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد .

فمن أطاعك من ذرية آدم وضل عن الحق ، فإن جزاءك على دعائك إياهم ، وجزاءهم على اتباعهم لك وخلافهم أمرى جزاء موفور لاينقص لكم منه شىء ، بما تستحقون من سيىء الأعمال ، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

(واستفزز من استطعت منهم بصوتك) أى قال تعالى مهددا له : استخفّ وأزعج بدعائك إلى معصية الله ، ووسوستك من استطعت من ذرية آدم .

(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى واجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصرف عن طاعتى ، ومثل هذا الأسلوب يراد به التشمير فى الأمر والجد فيه والتسلط على من يغويه ، وكأن فارسا مغوارا وقع

على قوم فصوّت بهم صوتا مزعجا من أماكنهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

قال مجاهد : ما كان من راكب يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل فى معصية الله فهو من رجّالة إبليس . وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما الأتباع والأعوان من غير ملاحظة لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا .

(وشاركهم فى الأموال) بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة وإنفاقها فى غير الطرق التى أباحها الدين ، ويشمل ذلك الربا والغصب والسرقة وسائر المعاملات الفاسدة .

قال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث وينفقوها فى حرام .

(والأولاد) بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب مالا يرضى الله .

وإجمال القول فيه — إن كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه ، أو بالزنا بأمه أو بوأده أو بقتله أو غير ذلك فقد شارك إبليس فيه مَن وُلد ذلك الولد له أو منه .

(وعدهم) بما يستخفهم ويغرهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لاجنة ولانار أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم « يافاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » أو بالتسويف فى التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك — إنه يغويهم بأن لاضرر من فعل هذه المعاصى ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها ، فتفويتها غبن وخسران .

خذوا بنصيب من سرور ولذة		فكل وإن طال المدى يتصرم

و ينفرهم من الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لا رجعة بعد هذه الحياة ، فهى عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعه .

(وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) لأنه لايغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة و باطل يزينها لهم و يلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » .

(إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى إن عبادى الذين أطاعونى فاتبعوا أمرى وعصوك ، ليس لك عليهم تسلط ، فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لايغفر ، فإنى قد وفقتهم بالتوكل علىّ ، فكفيتهم أمرك .

(وكفى بربك وكيلا) فهم يتوكلون عليه و يستمدون منه العون فى الخلاص من إغوائك ووسوستك .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان لايمكنه أن يحترز بنفسه من مواقع الضلال ، و إنما المعصوم من عصمه الله .

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) .

شرح المفردات

يزجى: أى يسوق حينا بعد حين ؛ والمراد أنه يجريه ، وفضله: هو رزقه ، والمراد بالضر: خوف الغرق بتقاذف الأمواج، وضل: غاب عن ذكركم ، والخسف والخسوف: دخول الشيء فى الشيء ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة: أى غائرة الماء ، وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ، والحاصب : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ، والقاصف : الريح تقصف الشجر وتكسره ، والتبيع : النصير والمعين ، وحملته على فرس : أى أعطيته إياها ليركبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالئ للعبد المؤمن من غواية إبليس ، وأنه لا يستطيع أن يمسه بسوء — قفى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى على الإنسان التى كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران ، وهو الذى يرى دلائل قدرته فى البر والبحر ، فهو الذى يزجى له الفلك فى البحر لتنقل له أرزاقه وأقواته من بعيد المسافات ، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة إذا مسه الضر دعا ربه ، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان ، فهل يأمن أن يخسف به الأرض ، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر ، أوقاصفا من الريح فى البحر فيغرقه بكفره ، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق ، وبسط له الرزق ، أفلا يفرده بالعبادة ويخبت له كفاء تلك النعم المتظاهرة عليه ؟

الإيضاح

(ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما) أى إن ربكم أيها القوم هو القادر الحكيم الذى يجرى لكم لنفعكم السفن فى البحر بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أو الكهربية لتسهيل نقل أقواتكم وحاجكم من إقليم إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أدناها ، والعكس بالعكس ، ونقل أشخاصكم من قطر إلى قطر ابتغاء للرزق أو للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع مما يرشد إلى باهر القدرة ، ووافر النعمة عليكم إنه كان بكم رحيما ، إذ سهل ما فيه الفوائد المرجوة لكم فى هذه الحياة .

ثم خاطب الكفار بقوله :

(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى وإذا نالتكم الشدة والجهد فى البحر ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر فلا تذكرون إلا الله ، ولا يخطر على بالكم سواه لكشف ما حل بكم .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين له الدين .

(فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى ومن عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه فى البحر أعرضتم عن الإخلاص ورجعتم إلى الإشراك به كفرا منكم بنعمته .

ثم علل هذا الإعراض بقوله :

(وكان الإنسان كفورا) أى وكانت سجية الإنسان وطبيعته أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف — إنهم حين الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وحين الرخاء يعرضون عنه .

ثم حذر من كفران نعمته فقال :

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟) أى أفحسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه ، فهو إن شاء خسف بكم جانب البر وغيبه فى أعماق الأرض وأنتم عليه ، وإن شاء أمطر عليكم حجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره ، جل وعلا .

وخلاصة ذلك — إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق فى البحر .

(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفتم بتوحيدنا فى البحر حتى خرجتم إلى البر — أن يعيدكم فيه مرة أخرى فيرسل عليكم ريحا تقصف السوارى وتغرق المراكب بسبب كفركم وإعراضكم عن الله ، ثم لا تجدوا لكم نصيرا يعينكم ويأخذ بثأركم .

قال قتادة : أى لا نخاف أحدا يتبعنا بشىء مما فعلنا ، يريد . إنكم لا تجدون ثائرا يطلبنا بما فعلنا انتصارا منا أو دركا للثأر من جهتنا ، وفى معنى الآية قوله : « فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وفى الآية وعيد أيما وعيد فكأنه قيل : ننتقم منكم من غير أن يكون لكم نصير يدفع عنكم شديد بأسنا .

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أى ولقد كرمنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات وحسن التفكير فى وسائل المعاش والتسلط على ما فى الأرض وتسخير ما فى العالم العلوى والسفلى ، وحملناهم على الدواب والقطر والطائرات والمطاود (واحدها منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم

ألا يشركوا بربهم شيئا ، ويرفضوا ماهم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .
والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة — إن فى الآية حثا للانسان على الشكر ، وألا يشرك بربه أحدا ، لأنه سخر له ما فى البر والبحر وكلأه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك لتجرى فى البحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) .

شرح المفردات

إمامهم : هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » والفتيل : الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ، ومثله النقير والقطمير ، أعمى : أى أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته ، والركون إلى الشىء : الميل إلى ركن منه ، ضعف الحياة : أى عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا ، وضعف الممات : أى

عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر و بعد البعث، ونصيرا: أى معينا يدفع عنك العذاب، لا يلبثون : أى لا يبقون ، خلفك : أى بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أى سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أى تغييرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أن الله أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضله عليهم تفضيلا — فصل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

الإيضاح

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أى اذكر لهم ذلك اليوم يوم ندعو كل أناس ومعهم كتابهم الذى فيه أعمالهم التى قدموها ، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة فلا يقال يابن فلان ، و إنما يقال ياصاحب كذا كما قال تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

والخلاصة : إن المعول عليه يومئذ الأعمال والأخلاق والآراء والعقائد النفسية التى تغرس فى النفوس لا الأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية .

(فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أى فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح ، ونحو الآية قوله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ » .

(ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، وقد ثبت

فى علم الـكيمياء أن وزن الذرات التى تدخل فى كل جسم هى بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحدة فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته فى خلقه ! .

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبيناته التى وضعها فى صحيفة الـكون وأمر بالتأمل فيها — فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذى كان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبى ، وكما يثمر النخل الثمر والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح على حسب ما يرى ، وما الثمر إلا على حسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لاهيا فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا وأبعد مدى فى الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقى فيه مناقبه ومثالبه ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

وبعد أن ذكر سبحانه درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء ، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم فقال :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) أى وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك فى الفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام ، لتتقوّل علينا غير الذى أوحيناه إليك مما اقترح عليك .

أخرج ابن إسحق وابن مردويه وغيرها عن ابن عباس « أن أمية بن خلف وأبا جهل ورجالا من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح

بآلهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم فأنزل الله هذه الآية إلى قوله نصيرا .

وعن سعيد بن جبير قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه فمنعته قريش وقالوا : لاندعك تستلم حتى تلمّ بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : ما علىّ أن ألم بها بعد أن يَدَعونى أستلم الحجر والله يعلم إنى لها كاره ، فأبى الله ذلك وأنزل عليه هذه الآية :

(وإذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك خليلا ووليا لهم وخرجت من ولايتى .

(ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يرومون .

وخلاصة ذلك — إنك كنت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحيل والخداع، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لم يهم بإجابتهم ولم يقرب من ذلك .

ثم توعده على ذلك أشد الوعيد فقال :

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة، فهو صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة ، لأنهم يتبعونهم .

ونظير ذلك من وجهٍ ما جاء فى نسائه صلى الله عليه وسلم من قوله « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

وخلاصة ذلك — إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت على

الركون همّك ، لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ، ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة .

وقد ذكروا فى حكمة هذا - أن الخطير إذا ارتكب جُرما وخطا خطيئة يكون سببا فى ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به ، فكأنه سن ذلك ، وقد جاء فى الأثر - « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

(ثم لا تجد لك علينا نصيرا) أى ثم لا تجد من يدفع العذاب أو يرفعه عنك .

روى عن قتادة أنه قال : « لما نزل قوله: و إن كادوا ليفتنونك الخ قال صلى الله عليه وسلم: اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » فينبغى للمؤمن أن يتدبرها حين تلاوتها ، و يستشعر الخشية ، و يستمسك بأهداب دينه و يقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

(و إن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) أى ولقد كاد أهل مكة يزعجونك و يستخفونك بعداوتهم ومكرهم من الأرض التى أنت فيها ليخرجوك منها ، بما فعلوه من حصرك والتضييق عليك ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار ذلك سببا لخروجه صلى الله عليه وسلم .

(و إذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) أى ولو استفزوك فخرجت لا يبقون بعدك إلا زمانا قليلا .

وفى هذا وعيد لهم بإهلاكهم بعد خروجه بقليل ، وقد تحقق ذلك بإفناء صناديد قريش فى وقعة بدر لثمانية عشر شهرا من ذلك التاريخ .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم ما لا قِبل لهم به ، ومن ثم قال تعالى: « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » الآية .

(ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى إن ما أجرى الله به العادة لايتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

شرح المفردات

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والغسق : شدة الظلمة ، وقرآن الفجر : أى صلاة الصبح ، كان مشهودا : أى تشهده شواهد القدرة و بدائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ، فمن ظلام حالك أزاله ضوء ساطع ونور باهر ، ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامس يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ، و يقظة النوام وحركتهم على ظهر البسيطة وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس ، والتهجد :

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أى فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أى زال واضمحل ، نأى بجانبه : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره ، وشاكلته : أى مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويئوسا : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله ، وأهدى سبيلا : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به ـ أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ، وألا يبالى بسعيهم وألا يلتفت إليهم ، فإنه يدفع مكرهم وشرهم ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوّا .

الإيضاح

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أى أدّ الصلاة المفروضة عليك بعد دلوك الشمس وزوالها إلى ظلمة الليل ، ويشمل ذلك الصلوات الأربعة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح ، وقد بينت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف قرنا بعد قرن .

وقد تقدم فى سورة البقرة أن المراد بإقامة الصلاة أداؤها على الوجه الذى سنه الدين ، والنهج الذى شرطه من توجيه القلب إلى مناجاة الرب والخشية منه فى السر والعلن ، مع اشتمالها على الشرائط والأركان التى أوضحها الأئمة المجتهدون ؛ والصلاة لب العبادة لما فيها من مناجاة الخالق والإعراض عن كل ما سواه ودعائه وحده ، وهذا هو مخ كل عبادة ، وفى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى ففى الفجر تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار وتشهدها جميعا ، ثم يصعد أولئك ويقيم هؤلاء ، روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» وقد يكون المراد كما قال الرازى - إن الانسان يشهد فيه آثار القدرة و بدائع الحكمة فى السموات والأرض ، فهناك الظلام الحالك الذى يزيله النور الساطع ، وهناك يقظة النوم بعد الخمود والغيبوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة فى الملك والملكوت ، فكل العالم يقول بلسان حاله أو مقاله « سُبُّوح قدوس ، رب الملائكة والروح » .

(ومن الليل فتهجد به) أى واسهر بعض الليل وتهجد به ، وهو أول أمر الله بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة . روى مسلم عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال صلاة الصبح » وقد ثبت فى صحيح الأحاديث عن عائشة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بعد نومه .

(نافلة لك) أى إنها مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهى فريضة عليك ومندوبة فى حق أمتك .

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى افعل هذا الذى أمرتك ، لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة فى ذلك اليوم .

أخرج النسأى والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : «يجمع الله الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فينادى يا محمد ، فيقول (لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لاملجأ ولامنجى منك إلاإليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت) فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله »اه .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، ومامن نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » الحديث .

وسر هذا — أن الهداة فى الأرض وهم الأنبياء ومن سلك نهجهم من الأئمة والعلماء لاتشرق قلوبهم إلا بتوجههم إلى الله فى أوقات الصلوات ، فإذا قاموا للخلق داعين أشرقت مرايا نفوسهم الصافية على من يدعونهم من العباد فتضىء نفوسهم فيستجيبون لدعوتهم ويكون لهم المقام المحمود بينهم والثناء العظيم الذى هم له أهل ، إلى أنهم يحسون فى أنفسهم سرورا ولذة وبهجة ورضا ، فيحمدون مقامهم ، كما حمدهم الناس من حولهم ، والله والملائكة من فوقهم .

لاجرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة ، إذ لاشفاعة فى الآخرة إلا على مقدار ما أوتى المشفوع له فى الدنيا من علم وخلق ، ولله فى الشفاعة ما يشاء من غفران و إعلاء درجات .

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) أى وقل داعيا : رب أدخلنى فى كل مقام تريد إدخالى فيه فى الدنيا وفى الآخرة مدخلا صادقا أى يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك ، وأخرجنى من كل ماتخرجنى منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق .

وخلاصة ذلك — أدخلنى إدخالا مرضيا كإدخالى المدينة مهاجرا ، و إدخالى مكة فاتحا و إدخالى فى القبر حين الموت ، وأخرجنى إخراجا محفوظا بالكرامة والرضا كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال :

(واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى واجعل لى تسلطا بالحجة والملك ، فأقنع المستمعين للدعوة بالحجة ، ويكون للإسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر.

وقد أجاب الله دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس كما قال : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الْأَرْضِ » .

ثم أمره أن يخبر بالإجابة بقوله :

(وقل جاء الحق وزهق الباطل) أى قل للمشركين مهددا لهم : إنه قد جاءهم الحق الذى لامرية فيه ، ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، واضمحل باطلهم وهلك ، إذ لاثبات له مع الحق كما قال: « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » .

(إن الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا لاثبات له فى كل آن .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: « دخل النبى صلى الله عليه وسلم

مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل ومايعيد .

وفى رواية للطبرانى والبيهقى عن ابن عباس « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ــ حتى مر عليها كلها » .

(وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى وننزل عليك أيها الرسول من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة وتزول أمراض الشدة والنفاق ، والزيغ والإلحاد ، وهو أيضا رحمة المؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلون الجنة وينجون من العذاب ، وفى الخبر « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

(ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدا عن الإيمان وازدادوا كفرا بالله ، لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لايفقهون كما قال : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال : « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » .

قال قتادة فى قوله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أى لا ينتفعون به ولا يحفظونه ولا يعونه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين اهـ .

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى وإذا أنعمنا على الإنسان بمال وعافية وفتح ونصر ونال ما يريد ـ أعرض عن طاعتنا وعبادتنا ونأى بجانبه ، وهذا كقوله « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » وقوله « فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » .

(وإذا مسه الشر كان يئوسا) أى وإذا أصابته الجوائح وانتابته النوائب كان يئوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك ، ونحو الآية قوله « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ » وقوله « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

ولما ذكر حالى العُمى والمهتدين ختم القول ببيان أن كلا يسير على مذهبه فقال :

(قل كلٌّ يعمل على شاكلته) أى قل إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته وحاله فى الهدى والضلال ، وما طبع عليه من الخير والشر .

(فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى فربكم أعلم من كل أحد بمن منكم أوضح طريقا واتباعا للحق ، فيؤتيه أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ، لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة ، وبمعنى الآية قوله « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » ولا يخفى ما فى الآية من تهديد شديد ووعيد المشركين .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

شرح المفردات

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

(١) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ» ، ولمابعده من قوله «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» وقوله « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(٢) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ » وقوله « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » وقال جبريل « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ » فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

(٣) الروح الذى يحيابه بدن الإنسان — وهذا قول الجمهور — ويكون ذكر الآية بين ماقبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق إلى معرفته ، ويؤيد هذا ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية » .

الإيضاح

(ويسألونك عن الروح) الذى يحيا به البدن ، أقديم هو أم حادث ؟

(قل الروح من أمر ربى) الأمر واحد الأمور أى الروح شأن من شؤونه تعالى حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه لايعلمه إلا هو ، لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلم من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لها إدراك ما هو غير مادى كالروح .

وللعلماء فى حقيقة الروح أقوال كثيرة أولاها بالاعتبار قولان :

(١) إن الروح جسم نورانى حى متحرك من العالم العلوى مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سارٍ فيه سريان الماء فى الورد والدهن فى الزيتون والنار فى الفحم ، لايقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، واختاره الرازى وابن القيم فى كتاب الروح .

(٢) إنه ليس بجسم ولاجسمانى ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالى وأبو القاسم الراغب الأصفهانى .

ثم أكد عدم علمه بها بقوله :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، ومن ثم قالوا : من فقد حسا فقد علما .

روى أنه لما نزلت الآية قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فنزل قوله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً» .

وخلاصة ذلك — إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، والذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه .

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

شرح المفردات

وكيلا : أى ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه ، وظهيرا : أى معينا فى تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، وصرفنا : كررنا ورددنا ، والكفور : الجحود .

المعنى الجملى

بعد أن امتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده — امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنة الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه منه ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الدين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم على الناس .

الايضاح

لما ذكر سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا ، بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا نمحونّ القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا ، وتصير كما كنت ، لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبرانى والبيهقى فى جماعة آخرين .

وعن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا تترك منه آية فى قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء ثم قرأ هذه الآية» .

وعنه أنه قال : ذهاب القرآن رفعه من صدور قارئيه .

(ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لا تجد ناصرا ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيّما لك فيمنعنا من فعل ذلك بك .

(إلا رحمة من ربك) أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما تسهيل ذلك العلم عليهم ؛ ثانيهما إبقاء حفظه .

(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصيّرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاما ونحو ذلك ،

لا يأتون بمثله وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين والجنة والنار ليدبروا آياته و يتعظوا بها .

(فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم وأفحموا ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها الله بقوله :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ

اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ؛ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

شرح المفردات

الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها ، جنة : أى بستانا تستر أشجاره ما تحتها من الأرض ، كسفا: واحدها كسفة كقطع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا: أى مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله الزينة وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى: أى تصعد ، مطمئنين : أى ساكنين مقيمين فيها ، وخبت : أى سكن لهبها ، والسعير: اللهب ، وكفورا أى جحودا للحق ، خشية الإنفاق : أى خوف الفقر ، والقتور: الشديد البخل .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم — أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعثرون فى أذيال الحيرة فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس « أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الـكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسيِّر جبالها لننتفع بأرضها ، وفجر لنا فيها نهرا وعيونا نزرع فيها ، فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتى قومك بمـا يسألونك ؟ فقال لا أستطيع ، قالوا إن كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب ، فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا والذى يُحلف به ، لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا ؟

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنمـا وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشرا رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تـكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من قومه بأن الهداية والإيمـان بيد الله ولا قدرة له على شىء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى لهم وسيلقون جزاءهم نار جهنم بمـا كسبت أيديهم ودسوا به أنفسهم من الـكفر والفجور والمعاصى ، وإنـكار البعث والحساب وهم يعلمون أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ، ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون وتـكثير الأموال واتساع المعيشة لمـا كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد ، فالإنسان بطبعه شحيح كزّ بخيل.

الإيضاح

علمت مما سلف أنهم طلبوا منه آية من ست ، وها هى ذى :

(١) (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لايهتدون كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » الآية .

(٢) (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

(٣) (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) تقول العرب : جاءنا بثريد كسف أى قطع من الخبز : أى أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت فى قولك : « أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — أو تسقط السماء علينا متقطعة ، ونحو الآية قوله: « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : «أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»

(٤) (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى أو تأتى بالله والملائكة نقابلهم معاينة ومواجهة قاله مجاهد وعطاء ، ونحو الآية قولهم : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

(٥) (أو يكون لك بيت من زخرف) أى أو يكون لك بيت من ذهب ، روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

(٦) (أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولن نصدقك من أجل رقيك وحده ، بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك .

(قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم على حسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك — سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا؟) أى وما منع مشركى قريش وهم من حكيت أباطيلهم — من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة .

ونحو الآية قوله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » وقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » الآية . وقال فرعون وملؤه : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ؟ » وكذلك قالت الأمم لرسلهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق منبها إلى المصلحة بقوله :

(قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتلقى الشرائع منهم - لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلّمه ، ولكن طبيعة المَلَك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب ، والتفاهم معهم لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوسا زكية ، وأيدهم بروح قدسية ، وجعل لهم ناحية مَلَكية بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة ، وجليل تلك النعمة بقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وقوله : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»

وإجمال القول فى ذلك — أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة كما قال تعالى جدّه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دحْية الكلبى مرارا عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وعليه وعثاء السفر فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

(قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) أى قل لهم : إن الله لما أظهر المعجزة على وَفق دعواى كان ذلك شهادة منه على صدقى ، ومن شهد له الله فهو صادق ، فادّعاؤكم أن الرسول يجب أن يكون ملَكا تحكم منكم وتعنت .

وخلاصة ذلك — إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال سبحانه : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لامعقب لحكمه ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شىء فقال :

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ماجئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشد ، ومن يضلله لسوء اختياره وتدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم .

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصمًّا) أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور — عميا وبكما وصما كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون

ولاينطقون بالحق و يتصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لايبصرون مايقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم كما قال : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « قيل يارسول الله، كيف يمشى الناس على وجوههم قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » .

وروى الترمذى : «إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر: مشاة، وركبانا، وعلى وجوههم » .

و إنا نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات وهوامّ الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه فى الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

والخلاصة — إنهم يبعثون فى أقبح صورة وأشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، و يؤيده قوله تعالى : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ » .

(مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم ، كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به وتحرقه ، زدناها لهبا وتوقدا بأن نعيدهم إلى ما كانوا عليه فتستعر وتتوقد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شىء صارت جمرا تتوهج فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم اه .

وكأن هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكررها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث أنكروها برهانا .

ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته فقال :

(ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم : أبعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرة ـ استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداعا على غير مثال سابق وأقامهما بقدرته ـ قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لايقدر على إعادتهم ، والإعادة أهون من الابتداء .

وبعد أن ثبت أن البعث أمر ممكن الوجود فى نفسه ، أردف ذلك بأن لحصوله وقتا معلوما عند الله فقال :

(وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لابد من انقضائها، لايعلمها إلا هو كما قال : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ » .

وخلاصة ذلك — إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لاشك فيه ، فلا وجه لإنكاره .

(فأبى الظالمون إلا كفورا) أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) المراد من الإنفاق هنا الفقر كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة وإليه ذهب الراغب فقال : يقال أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى ، أى قل لهم أيها الرسول : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الفقر : أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لاتفرغ ولا تنفد أبدا .

وقصارى ذلك — إنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لايجيبكم إلى ما طلبتم من نبيّه صلى الله عليه وسلم من بساتين وعيون تنبع ، لابخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ومن ثم لم ينزل مااقترحتموه .

(وكان الإنسان قتورا) أى وكان الإنسان بخيلا ممنوعا بطبعه كما قال «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء (أخذ) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما فى يمينه » .

وإجمال المعنى — إن الله لم يجب محمدا إلى ما طلبتم ، لا هوانا لنبيه ، ولا لأنه ليس بنبى ، ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كان وفير العطاء إذا نزل على غير وجهه مصايب على الناس ، فأما أنتم فمنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وادّارستموها لم تقوموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلقه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ . وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) .

شرح المفردات

مسحورا : أى مخبول العقل ، بصائر : أى حججا و بينات واحدها بصيرة أى مبصرة بينة ، مثبورا : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد ، قال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » أن يستفزهم: أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها ، واللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى من شريف ودنىء ومطيع وعاص وقوى وضعيف ، وكل شىء خلطته بغيره فقد لففته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا ـ ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتم وأعظم منه ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات وكفاكم الآيات العلمية التى أنزلها على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك

فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه حين أرسل إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها كما قال تعالى « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ » وقال « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

وقد ذكر سبحانه فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

(١) إنه أزال العقدة من لسانه، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحا .

(٢) انقلاب العصا حية .

(٣) تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

(٤) اليد البيضاء .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم .

(١٠) شق البحر .

(١١) انفلاق الحجر فى قوله « أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ».

(١٢) إظلال الجبل فى قوله « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » .

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

(١٤ ، ١٥) الجدب ونقص الثمرات فى قوله « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ » .

(١٦) الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع . أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور

وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس إنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال عليه السلام : لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ، فقبّلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبي ، قال فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود » .

قال الشهاب الخفاجى وهذا هو التفسير الذى عليه المعول فى الآية .

ثم خاطب نبيه فقال :

(فاسأل بنى إسرائيل) أى اسأل بنى إسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك كعبد الله بن سلام وأصحابه سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنينتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

(إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا) أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إنى لأظنك يا موسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأى .

(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التى أريتكها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لى على صدق وصحة قولى إنى رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى

بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها أن من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض .

(و إنى لأظنك يا فرعون مثبورا) أى و إنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

(فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا) أى فأراد فرعون أن يخرج موسى و بنى إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحدا ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر و من معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج .

(وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) أى ونجينا موسى و بنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم و بينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

شرح المفردات

الحق : هو الثابت الذى لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء و إثبات البعث والقيامة، وفرقناه : أى أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث (بالضم والفتح): التؤدة والتأنى، والخرور: السقوط بسرعة ، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين ، ادعوا الله أو ادعو الرحمن : أى سموه بهذين الاسمين ، خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تساروا فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دالّ على صدق الرسول بقوله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن » الآية ، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لاحاجة إلى شىء سواه ، و بأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المعجزات التى اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها ،لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا ــ عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره ، و بيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا فإن من قبلكم من أهل

الكتاب إذا تلى عليهم خروا له سجدا وبكيا؛ ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالأمران سواء ، ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال فى دعائه يا ألله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » الآية .

وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت .

الإيضاح

(وبالحق أنزلناه) أى وأنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

(وبالحق نزل) أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يشب بغيره فلم يزد فيه ولم ينقص، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

(وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) أى وآتيناك قرآنا فرقناه أى نزلناه مفرقا منجما ، وقد بدئ بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأنّ ليسهل عليهم حفظه ويكون ذلك أعون على تفهم معناه . أخرج البيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى ، والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ونزلناه تنزيلا بعد قوله فرقناه — بيان أن ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل على حسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا — آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للايمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم واحتقار شأنهم بقوله :

(إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا — يخرون لله سجدا شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم : تنزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة — إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء بشأنهم .

(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمره وطاعته .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة ؛ فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى» .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم» .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التيمى أنه قال : إن من أوتى من العلم مالم يبكه لخليق أن قد أوتى من العلم مالا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال (ويخرون للأذقان يبكون) .

ثم رد على المشركين المنكرين إطلاق اسم الرحمن عليه عز وجل فقال :

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سموا الله أيها القوم أو سموا الرحمن فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض ، وهذان الاسمان منها .

روى مكحول «أن رجلا من المشركين سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية» .

ثم أمره بالتوسط فى القراءة فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال :

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى ولا تجهر بقراءتك

فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والمخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به» .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت فى قراءته و يقول أناجى ربى وقد علم حاجتى ، وعمر كان يجهر بها و يقول : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

ولما أمر الله رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله :

(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل) أى وقل لله ذى الجلال والكمال ، الحمد والشكر على ما أنعم على عباده من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

(١) إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه ـ تنزه ربنا عن ذلك ـ ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

(٢) إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

(٣) إنه لم يكن له ولىّ من الذل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته.

والخلاصة — إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، و إذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لا يحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

(وكبره تكبيرا) أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

(١) بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود.

(٢) بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزه عن صفات النقص .

(٣) بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شىء فى ملكه إلا على وفق حكمته و إرادته .

(٤) بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع له الأمر والنهى والرفع والخفض ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء و يذل من يشاء .

(٥) تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « آية العز (الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية » . وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح ، الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات» .

مجمل ما حوته السورة من الأغراض

(١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .

(٢) تاريخ بنى إسرائيل فى حالى الارتقاء والانحطاط .

(٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دُولها كما ذهبت دولة بنى إسرائيل .

(٤) بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .

(٥) الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .

(٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .

(٧) الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم.

(٨) قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .

(٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .

(١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم و إلحافهم فى ذلك .

(١١) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل .

(١٢) بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .

(١٣) قصص موسى مع فرعون .

(١٤) الحكمة فى إنزال القرآن منجما .

(١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

سورة الكهف

هى مكية كلها فى المشهور واختاره جمع من العلماء ، وعدة آيها مائة وإحدى عشرة .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان فى سائر الكلام فى نحو : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » ونحو سبحان الله وبحمده .

(٢) تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإنّ كلا منهما حمد .

(٣) إنه ذكر فى السابقة قوله : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبيِّ بنى إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهى تدل على كثرة معلومات الله التى لاتحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم .

(٤) إنه جاء فى السورة السابقة : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً » ثم فصل ذلك هنا بقوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » إلى قوله : « وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ

عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) .

شرح المفردات

العوج : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه ، قيما : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشقّ على العباد ، ولا تفريط فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه ، والبأس : العذاب الشديد فى الآخرة ، من لدنه : أى من عنده ، كبرت : (بضم الباء) كلمة : أى ما أعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل ، باخع : أى قاتل (منتحر) قاله ابن عباس وأنشد قول لبيد :

لعلك يوما إن فقدت مزارها على بُعْده يوما لنفسك باخع

على آثارهم : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه ، والحديث : هو القرآن ، والأسف : المبالغة فى الحزن والغضب ، وصعيدا : أى ترابا ، وجرزا : أى لا نبات فيه .

الإيضاح

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما) حمد الله نفسه على إنزاله كتابه العزيز إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم نعمة أنزلها على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أنزل الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم

مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، بل بعضه يصدق بعضا ، و بعضه يشهد لبعض ، ولا اعوجاج فيه ولا ميل عن الحق .

(لينذر بأسا شديدا من لدنه) أى ليخوف الذين كفروا به عذابا شديدا صادرا من عنده أى نكالا فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة .

(ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا) أى و يبشر المصدقين الله ورسوله الذين يمتثلون أوامره ونواهيه ـ بأن لهم ثوابا جزيلا منه على إيمانهم به وعملهم الصالح فى الدنيا ، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التى وعدها الله المتقين خالدين فيها أبدا لاينتقلون منها ولا ينقلون .

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) أى وليحذّر من بين هؤلاء الكفار من قالوا هذه المقالة الشنعاء ـ إن الله اتخذ ولدا ، وهؤلاء ثلاث طوائف .

(١) المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله .

(٢) اليهود القائلون عزير ابن الله .

(٣) النصارى القائلون المسيح ابن الله .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

(ما لهم به من علم) أى ليس لهم باتخاذ الولد برهان ، بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده ، ولا عقل يظاهره .

(ولا لآبائهم) أى وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة وهم القدوة لهم ـ به علم .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم) أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر ، وليتهم اكتفوا بخطورها بالبال وترددها فى الصدور ، بل تلفظوا بها على مرأى من الناس ومسمع ، وكثير مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يتلفظ به ،

بل يكتفى بما يعتقده القلب ، فكيف ساغ لهم أن يجرءوا على التلفظ بهذا المنكر الذى لامستند له من عقل ولا نقل .

ثم أكد هذا الإنكار وبين أنه كما لاعلم لهم ولآبائهم به — لاعلم لأحد به ، لأنه لاوجود له وما هو إلا محض اختلاق بقوله :

(إن يقولون إلا كذبا) أى ما يقولون إلا قولا لاحقيقة له بحال .

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) لعل هنا للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى — أى لا تبخع نفسك من بعد توليهم عن الإيمان وإعراضهم عنه أسفا وحسرة عليهم .

أى إنك قد اشتد وجدك عليهم وبلغت حالا من الأسى والحسرة صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه أن يبخعها أسى وحسرة عليهم ، وما كان من حقك أن تفعل ذلك ، إن عليك إلا البلاغ ، وليس عليك الهداية « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

وقد جاء مثل هذا النهى فى آيات كثيرة كقوله « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وقوله « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » وقوله « وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

وخلاصة ذلك — أبلغهم رسالة ربك ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنما أنت منذر ولست عليهم بمسيطر ، إن عليك إلا البلاغ .

ثم ذكر سبحانه سبب إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير مايقدر عليه من التبليغ بالبشارة والنذارة ، وهو أنه تعالى جعل ما على الأرض زينة لها ليختبر المحسن والمسىء ويجازى كلا بما يستحق فقال :

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) أى إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها ، لنختبر حالهم فى فهم

مقاصد تلك الزينة والاستدلال بها على وجود خالقها والإخبات إليه والطاعة له فيما أمر به والبعد عما نهى عنه ، فتقوم عليهم الحجة ، فمن اعتبر بتلك الزينة وفهم حكمتها حاز المثوبة ، ومن اجترأ على مخالفة أمره ، ولم يفهم أسرارها ومقاصدها استحق العقوبة .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا ما على الأرض من الزينة لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، فنجازى المحسنين بالثواب والمسيئين بالعقاب ، ويمتاز أفراد الطبقتين بعضهم عن بعض على حسب امتياز درجات أعمالهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا نضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون » ، وقال : « إن أخوف ماأخاف عليكم مايخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، قيل وما زهرة الدنيا ؟ قال بركات الأرض » ، وروى البخارى أن عمر كان يقول اللهم إنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إنى أسألك أن تنفقه فى حقه .

(وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) أى إن الأرض وما عليها بائد فانٍ ، وإن المرجع إلى الله ، فلا تأس ولا تحزن لما تسمع وترى ، ونحو الآية قوله « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وقوله « فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا » .

وإجمال المعنى — إن ما على الأرض سيصير ترابا ساذجا بعد ما كان يتعجب من بهجته النظارة ، وتسر برؤيته العيون ، فلا تحزن لما عاينت من تكذيب هؤلاء لما أنزل عليك من الكتاب ، فإنا جعلنا ما على الأرض من مختلف الأشياء زينة لها لنختبر أعمال أهلها ، فنجازيهم على حسب ما هم له أهل ، وإنا لمفنون ذلك بعد حين .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وكأنه قيل : لا تحزن فإنا ننتقم لك منهم .

تلخيص لقصة أهل الكهف كما أثر عن العرب

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام ، وأكرهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية من أشراف قومه عبادتها وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فنزع ثيابهم وحليهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على عبادتها ، وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أفسوس أوطرسوس) فى جبل يدعى (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم دقيانوس وقتلهم ماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما مروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه ، فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تمليخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى لايزال مجدّا فى طلبهم ، حتى إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العُبّاد والنساك ليذبحهم أو يسجدوا للأصنام ، فسمع بذلك تمليخا بينما كان يشترى لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس ، فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم وقالوا إنهم فى الكهف ، فتوجه إليهم وسدد عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان فى حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما وهما بيدروس ، وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر وجعلاهما فى تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت فى البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيجىء من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر .

وبعدئذ ملك البلاد ملك صالح يسمى بيدروس دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم

الناس فى شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به ؛ وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا ، وضرع إلى الله أن يُرِى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لاريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون ، ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وقال آخرون ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم (الورِق الفضة) هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ، ليشترى لهم الطعام وهو متلطف فى السؤال مختف حذرا من دقيانوس .

وبينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجبالم لم يذبح دقيانوس هؤلا المؤمنين ؟ وبقى حائرا دهشا وقال : ربما أكون فى حلم أو لعل هذه ليست مدينتنا ، فسأل رجلا ما اسم هذه المدينة ، قال (أفسوس) وفى آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورِقا ليشترى به طعامه فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذى لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ويعطيه إلى جيرته ، وهم يعجبون منه ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراهم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمى المدينة فظن فى بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس: أين الكنز الذى وجدت يا فتى ، وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس وأن حديثهما كان أمس؛ وإن كان لديكما ريب من أمرى فهاهو ذا الكهف فاذهبا معى لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف ، وتقدمهما تمليخا فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصا على عقيدتهم ودينهم ، فسدّ عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجدا وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن عجِّلْ واحضر لترى آية الله فى أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته حتى أتوا مدينة أفسوس وكان يوما مشهودا ، وحين رأى الفتية خرّ ساجدا لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم ، فأمر الملك أن يجعل كل منهم فى تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم فى منامه يقولون له : اتركنا كما كنا فى الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك أن يوضعوا فى تابوت من ساج وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيما . ذلك هو القصص الذى جعله النصارى دليلا على البعث . أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فآياتى عليه لا تعد ولا تحصى ، فاقرءوا صحائف هذا الوجود ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم ، واجعلوا أنظاركم تتجه إلى ما حواه الكون لا إلى ما كتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

إجمال القرآن لقصص أهل الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ

لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) .

شرح المفردات

أم: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر، وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بل أحسبت، والخطاب فى الظاهر للنبي عليه السلام، والمراد غيره كما سبق نظيره ، والـكهف: النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعا فهو غار ، والرقيم لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء ، أوى إلى المـكان: اتخذه مأوى ومكانا له، والفتية واحدهم فتى وهو الشاب الحدث ، وقد كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم لهم أطواق وأسورة من الذهب ، وهيىء: أى يسر ، والرشد (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب ، فضربنا على آذانهم أى ضربنا عليها حجابا يمنع السماع ، كما يقال بنى على امرأته ، يريدون بنى عليها قبة ، والمراد أنمناهم نومة لا تنبههم الأصوات الموقظة، عددا: أى ذوات عدد والمراد التكثير ، لأنّ القليل لا يحتاج إلى العد غالبا، بعثناهم: أى أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ، والحزبين : هما الحزب القائل لبثنا يوما أو بعض يوم ، والحزب القائل ربكم أعلم بما لبثتم ، وأحصى : أى أضبط لأوقات لبثهم ، والأمد : مدة لها حد وغاية .

الإيضاح

(أم حسبت أن أصحاب الـكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى لا تحسب أن قصة أصحاب الـكهف والرقيم المذكورة فى الـكتب السالفة حين استمروا أحياء أمدا طويلا — عجبا بالإضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة ؛ فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ؛ بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من

قصة أصحاب الكهف ؛ فإذا وقف علماء الأديان الأخرى عند أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها ؛ وهو النظر فى الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله وأنه يفعل ما يشاء لامعقب لحكمه.

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمح إليها الإنسان ويجعلها مُثُله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا) أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة والأمن من الأعداء .

(فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) أى فضربنا على آذانهم حجابا يمنعهم السماع وأنمناهم نوما لاينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

(ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك — إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله

بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به في أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا لمؤمني زمانهم ، وآية بينة لكفارهم .

تفصيل ذلك القصص وبسطه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا ؟ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللّٰهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) .

شرح المفردات

النبأ : الخبر العظيم ، وبالحق : أي بالصدق ، والربط : الشد ، وربطت الدابة : شددتها بالرباط ، والمربط : الحبل ، وربط الله على قلبه ، أي قوى عزيمته ، قاموا :

أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس ، إلها : أى معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا ، اتخذوا من دونه آلهة : أى نحتوا أصناما وعبدوها ، والسلطان : الحجة والبيّن : الظاهر ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب كما قال :

يا بيتَ عاتكةَ التى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد مُوَكَّلُ

فأووا إلى الكهف : أى التجئوا إليه ، وينشر لكم : أى يبسط لكم ، والمرفق: ما يرتفق وينتفع به ، وتزاور : تتنحى ، وذات اليمين : أى جهة يمين الكهف ، وتقرضهم : أى تعدل عنهم، قال الكسائى : يقال : قرضت المكان: إذا عدلت عنه ولم تقربه ، فجوة : أى متسع ، والأيقاظ ، واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها) والرقود : واحدهم راقد ، أى نائم ، وباسط ذراعيه : أى مادّهما ، والوصيد : فناء الكهف ، والرعب : الخوف يملأ الصدر .

الإيضاح

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقا لامحل للريبة فيه .

وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورا . وصيدهمو والقوم فى الكهف هُمَّدٌ

ثم فصّل ذلك بقوله :

(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى إنهم شباب آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى بالتثبيت على الإيمان والتوفيق للعمل الصالح والانقطاع إلى الله والزهد فى الدنيا .

وقد جرت العادة أن الفتيان أقبل للحق ، وأهدى للسبل من الشيوخ الذين

قد عتوا وانغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم شبّانا ، و بقى الشيوخ على دينهم ، ولم يُسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وقوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » وقوله : « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

فى أى زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجىء النصرانية لا بعدها كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم و يعنون بها فقد روى عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفى هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب وأنه مقدم على النصرانية .

(ور بطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ر بنا رب السموات والأرض) أى وألهمناهم قوة العزيمة وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام ـ ر بنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة بالبراءة من إله غيره فقالوا :

(لن ندعو من دونه إلها) أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهاً، لا على طريق الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، و بالجملة الثانية إلى توحيد الر بو بية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد

الثانية ، بدليل قوله . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله سبحانه حكاية عنهم : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » وكانوا يقولون فى تلبيتهم فى الحج : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم :

(لقد قلنا إذاً شططا) أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفى هذا إيماء إلى أنهم دُعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال :

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن) أى إن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سنّا وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق ما يقولون ، كما أتينا على صدق ما ندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) أى لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم والجئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة فى مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ، ويسهل لكم من أمر القرار بدينكم والتوجه إليه فى عبادتكم ما ترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم ، أخرج الطبرانى وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب ،

وقرأ : «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ » .

ثم بيّن سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال :

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه) أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم فى وسطه ومتسعه ، فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك — إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها إذ كان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبدا ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف فى ناحية الشرق لما دخل إليه شىء منها حين الغروب ، ولو كان من ناحية الجنوب لما دخل منها شىء حين الطلوع ولا الغروب وما تزاور الفىء لايمينا ولا شمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولا تزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل ببلاد الروم ، ولم يقم إلى الآن الدليل على شىء من ذلك ، ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما تركت شيئا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به » .

(ذلك من آيات الله) أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم ، وإيواءهم إلى كهف تلك صفته بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة ، وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم - كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال :

(من يهد الله فهو المهتد) أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف ، فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ووفقوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة عليهم وتهيئة المرفق .

(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أى ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له أبدا خليلا ولا حليفا يرشده لإصابة سبل الهداية ، ويخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ، ويخذل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى أنه لاينبغى له أن يحزن على إدبار قومه عنه وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

(وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) أى ولو رأيتهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادئ ذى بدء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولا سيما العينان والوجه .

(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولايتأثر ما يلى الأرض منها بطول المكث .

(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى وكلبهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب وأنشدوا :

بأرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدها   علىّ ومعروفى بها غير منكر

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف ، لأدبرت عنهم هاربا فارا منهم .

(ولملئت منهم رعبا) أى ولملئت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفزعا ، لأن الله قد ألبسهم هيبة ووقارا كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد أن يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ

ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) .

شرح المفردات

بعثناهم: أي أيقظناهم ، لبثتم: أي أقمتم ، والورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ، وأزكى: أجود وأطيب ، وليتلطف: أي يتكلف اللطف في المعاملة كي لاتقع خصومة تجر إلى معرفته ، ولايشعرنّ : أي لايفعلنّ مايؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، إن يظهروا عليكم: أي إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ؛ وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعثارا : إذا سقط لوجهه ، ويقال في المثل « من سلك الجَدَد أمن العثار » ، ثم استعمل في الاطلاع على أمر من غير طلب له ، والساعة: يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعا للحساب والجزاء ، والتنازع التخاصم ، والذين غلبوا على أمرهم هم رؤساء البلد ، لأنهم هم الذين لهم الرأى في مثل هذا ، والمسجد : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور ، والرجم : القول بالظن ويقال لكل ما يخرص رجم فيه ومرجوم ومرجم كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرَجَّمِ

والغيب: ما غاب عن الإنسان ؛ فالمراد أن يرمى الإنسان ماغاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أي يتكلم من غير تدبر ، والمراد هنا القول بالظن والتخمين ، والمراء : المحاجة فيما فيه مرية وتردد ، والمراء الظاهر: مالا تعمق فيه بألا يكذبهم في تعيين العدد ، بل يقول هذا التعيين لادليل عليه ، فيجب عدم الجزم به ، ولا تستفت : أي لاتطلب الفتيا منهم .

الإيضاح

(وكذلك بعثناهم) أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الـكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا ــ بعثناهم من رقدتهم وأيقظناهم من نومهم ، لنعرّفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

(ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ؟) أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أى فأجابه الآخرون ، فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ظنا منهم أن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك اللبث ، أيوم هو أو بعض يوم ، لأن لُوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن أنه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الـكهف كان فى أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم (هذه) إشارة إلى أن القائل كان قد أحضرها ليناولها بعض أصحابه ، وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لا ينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث « اعقلها وتوكل » .

(فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذّ فليأتكم بمقدار منه .

(وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحدا) أى وليترفق فى دخول المدينة وفى شرائه وفى إيابه منها ، ولا يخبرنّ بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم :

(إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم) أى إن الكفار إذا علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم ، إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة ، وكان ذلك هو المتبع فى الأزمنة الغابرة فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير فى الأمور الدينية والسياسية التى لها شأن فى الدولة ، وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التى هم مستمسكون بها .

(ولن تفلحوا إذاً أبدا) أى وإن دخلتم فى ملتهم ولو بالإكراه والقسر لن تفوزوا بخير لا فى دنياكم ولا فى آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتنقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لا خذلان بعده .

(وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) أى وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم حين رقدوا ، ليتساءلوا بينهم فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه — أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من إنشاء أجسام خلقه كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لا حجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ،

ولـكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غُلَوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ويردهم إلى رشدهم .

ذاك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحقبة الطويلة ، وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئا عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شؤونها — وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم — من وادٍ واحد فى الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياب فى إمكان وقوع الثانى ، ولايبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ، ويجازيهم جزاء وفاقا على حسب أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا فى أمر البعث ، فمن مقرٍّ به ، وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد — ففرح الملك وفرحوا بآية الله على البعث ، وزال ما بينهم من الخلاف فى أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا مارأوا ممايثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

(فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجدا) أى إنهم انقسموا فى شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسدّ عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول فى الرأى .

وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة من كلامه تعالى ردا للخائضين فى أمرهم

إما من أعثروا عليهم ، أو ممن كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فى بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهى عنه أشد النهى حتى ذكر ابن حجر فى كتابه الزواجر أنه من الكبائر ، لما روى فى صحيح الأخبار من النهى عن ذلك ، روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وزاد مسلم «ألا و إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، فإنى أنها كم عن ذلك » .

وروى الشيخان والنسائى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .

وروى أحمد والشيخان والنسائى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » .

وروى أحمد والطبرانى : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد » .

إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة ، فليعتبر المسلمون اليوم بهذه الأخبار التى لامرية فى صحتها ، وليقلعوا عماهم عليه من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها ، والتمسح بأعتابها ، وليعلموا أن هذه وثنية مقنعة ، وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ، والعبرة بالجوهر واللب ، لا بالعرض الظاهر، فذلك إشراك بالله فى ربوبيته وعبادته ، وقد حاربه الدين أشد المحاربة ، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون .

اللهم ألهم المسلمين رشدهم ، وثبتهم فى أمر دينهم ، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القُذَّة بالقُذة ، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون فى الصدر الأول

وما بعده ، فرجاله هم الأسوة ، وقد صح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وجد قبر دانيال فى عهده بالعراق أمر أن يسوى بالأرض ، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده وفيها شىء من الملاحم وغيرها من الأخبار .

ولما ذكر سبحانه القصة ونزاع المتخاصمين فيما بينهم - شرع يقص علينا ما دار فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلاف فى عدد أصحاب الكهف فقال :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس .

(قل ربى أعلم بعدتهم) فى هذا إرشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشىء .

(ما يعلمهم إلا قليل) أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس ، روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتينا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين : المراء فى أمرهم، والاستفتاء فى شأنهم فقال :

(فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلا سهلا لينا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ، ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لايترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لامحالة وهذا لايتوقف على عدد معين إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لإتمامها .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى ولاتستفت النصارى فى شأنهم فإنهم لاعلم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) .

المعنى الجملى

جاءت هاتان الآيتان إرشادا وتأديبا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شىء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءت معترضة أثناء القصة لما تضمنته من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لايحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن الروح وعن أصحاب الـكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشق ذلك عليه وكذبته قريش .

الإيضاح

(ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) أى ولا تقولن أيها الرسول لشىء إنى سأفعل ذلك غدا إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله ، فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد ونفر الناس منه .

(واذكر ربك إذا نسيت) أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتدارك حين التذكر ، سواء أطال الفصل أم قصر .

(وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى وقل عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب إرشادا للناس ، وأظهر حجة من نبأ أهل الـكهف .

وقد حقق الله له ذلك ، فآتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصـة ذلك — اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيرا ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهى ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ماهو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ماأجمل فى قوله : فضربنا على آذانهم فى الـكهف سنين عددا ، وأكده بالآية بعدها فقال :

وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

الإيضاح

(ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) أى ولبثوا فى الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلثمائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعا زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية .

لا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشدا ، وهو الذى جعله يلفت الأنظار إلى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ؛ فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى ، فما من حيوان ولا نبات إلا أس حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشدا من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدى أنبيائكم وأوليائكم . فإنى قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلق

من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلق «لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» .

ثم أكد أن المدة المضروبة على آذانهم هى هذه المدة فقال :

(قل الله أعلم بما لبثوا) أى قل الله أعلم منكم بهم وقد أخبر بمدة لبثهم فهو الحق الذى لايحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضا كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » تذييلا لسابقه ليكون محاكيا قوله فى حكاية عددهم « قل ربى أعلم بعدتهم » .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم ما لبثوا مبينا علمه فقال :

(له غيب السموات والأرض) أى ولله علم ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلهما ، لا يعزب عنه علم شىء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية ، فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ، ومن ثم يعجبون من أمر نبيهم ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

(أبصر به وأسمع) هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لايخفى عليه شىء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وقد ورد مثل هذا فى الحديث : «ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك » .

(ما لهم من دونه من ولى) أى ما لخلقه دون ربهم الذى خلقهم — ولىّ تدبير أمورهم وتصرفهم إلى ما هم فيه مصرّفون .

(ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لامعقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدست أسماؤه .

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) .

شرح المفردات

لا مبدل : أى لامغير، لكلماته أى لأحكامها فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه ، ملتحدا : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألمت بك ملمة ، واصبر نفسك : أى احبسها وثبتها ، بالغداة والعشى: أى فى طرفى النهار، وخصهما بالذكر لأنهما محل الغفلة وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم ، وجهه : أى رضاه وطاعته ، لأن من رضى

عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه ، ولا تعد عيناك عنهم : أى لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لاتحتقرهم وتصرف النظر عنهم لرثاثة منظرهم إلى غيرهم ، تريد زينة الحياة الدنيا: أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، أغفلنا قلبه : أى جعلناه غافلا ، فرطا: أى تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين ، وأعتدنا : أى أعددنا وهيأنا ، والسرادق : لفظ فارسى معرّب يراد به الفسطاط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، المهل: درديّ الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس ، يشوى الوجوه : أى ينضجها إذا قدم ليشرب لشدة حره ، ومرتفقا : أى متكأً ؛ يقال بات فلان مرتفقا أى متكئا على مرفق يده ، وجنات عدن : أى جنات إقامة واستقرار ؛ يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه واستقر ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، والأساور : واحدها سوار ، والسندس: رقيق الديباج واحده سندسة وهو فارسى معرّب ، والاستبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرب ، والأرائك واحدها أريكة ــ سرير عليه حجلة (أو ناموسية) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ودل اشتمال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ــ أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له ائت بقرآن غير هذا أو بدله .

الإيضاح

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) أى واتل الكتاب الذى أوحى إليك ، والزم العمل به ، واتبع ما فيه من أمر ونهى ، وإن أحدا لايستطيع أن يغير ما فيه من وعيد لأهل معاصيه ، ومن

وعد لأهل طاعته ، فإن أنت لم تتبعه ولم تأتم به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد به المخالفين حدوده - فلن تجد موئلا من دونه ، ولا ملجأ تلجأ إليه ، إذ قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الهرب من أمر أراده به .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى احبس نفسك وثبتها مع فقراء الصحابة كعمار بن ياسر وصهيب وبلال وابن مسعود وأضرابهم ممن يدعون ربهم بالغداة والعشى بالتسبيح وصالح الأعمال ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون عرضا من أعراض الدنيا ولا شيئا من لذاتها ونعيمها .

روى « أن عيينة بن حصن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسى وعليه شَمْلة قد عرق فيها ، وبيده خوص يشقه ثم ينسجه ، فقال له : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنحّهم حتى نتبعك ، أو اجعل لهم مجلسا ولنا مجلسا ، فنزلت الآية » .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » .

ومقال هؤلاء شبيه بمقالة قوم نوح : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » .

ثم أمره سبحانه بمراقبة أحوالهم فقال :

(ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) أى لا تصرف بصرك ونفسك عنهم رغبة فى مجالسة الأغنياء لعلهم يؤمنون .

وخلاصة ذلك - النهى عن احتقارهم وصرف النظر عنهم إلى غيرهم لسوء

حالهم وقبح بزّتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت الآية : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معه .

ثم أكد هذا النهى بقوله :

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أى ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن ذكر الله ، لسوء استعداده ، واتباع شهواته وإسرافه فى ذلك غاية الإسراف ، وتدسيته نفسه ، حتى ران الكفر والفسوق والعصيان على قلبه ، وتمادى فى اجتراح الآثام والأوزار .

وفى ذلك تنبيه إلى أن الباعث لهم على استدعاء الطرد غفلة قلوبهم عن جناب الله والعمل على ما يقرب منه ، وشغلهم بالأمور الحسية حتى خفى عليهم أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام والشرف .

وبعد أن نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلتفت إلى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت أولئك الفقراء آمنا بك ــ أمره أن يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد : هذا هو الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر ، واتبعوا أهواءهم : هذا الذى أوحى إلى هو الحق من عند ربكم ، وهو الذى يجب عليكم اتباعه والعمل به ، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل فى غمار المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يصلح أن يكون معذرة له فليفعل، ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراء ظهره فأمره إلى الله ، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متبعا ، وبالله وبما أنزل علىّ مؤمنا .

وخلاصة ذلك — إننى فى غنى عن متابعتكم وإننى لا أبالى بكم ولا بإيمانكم ، وأمر ذلك إليكم ، وبيد الله التوفيق والخذلان والهوى والضلال ، وهو لا ينتفع بإيمان

المؤمنين ، ولا يضره كفر الكافرين كما قال : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

ولما هدد السامعين بأن يختاروا لأنفسهم ما يجدونه غدا عند الله ـ أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والمعاصى ، والوعد على الأعمال الصالحة ، فبدأ :

(إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) أى إنا قد أعددنا لمن ظلم نفسه وأنف من قبول الحق ، ولم يؤمن بما جاء به الرسول ـ نارا يحيط بهم لهيبها المستعر من كل جانب كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مخلص منه ولا ملجأ إلى غيره

(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) أى وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة وهم فى النار ، فيطلبوا الماء لشدة ماهم فيه من العطش لحر جهنم كما قال فى سورة الأعراف حكاية عنهم: « أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ » يؤت لهم بماء غليظ كدردىّ الزيت ، وإذا قرب إليهم للشرب سقطت جلود وجوههم ونضجت من شدة حره .

روى أحمد والترمذى والبيهقى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المهل : كَعِكْرِ الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه» ، وعن ابن عباس قال أسود كعكر الزيت .

(بئس الشراب وساءت مرتفقا) أى ما أقبح هذا الشراب الذى هو كالمهل ، فهو لا يطفئ غلة ، ولا يسكن حرارة الفؤاد ، بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومقيلا وموضعا للارتفاق كما قال فى الآية الأخرى : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

ثم ثنى بذكر السعداء فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أى إن الذين آمنوا بالحق الذى يوحى إليك ، وعملوا ما أمرهم به ربهم ، فالله لا يضيع أجرهم على ما أحسنوا من الأعمال ، ولا يظلمهم على ذلك نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين ما أعد لهم من النعيم بقوله:

(١) (أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار) أى إنه لهم جنات يقيمون فيها تجرى من تحت غرفها الأنهار .

(٢) (يحلون فيها من أساور من ذهب) أى يلبسون فيها أساور من ذهب تكون حلية لهم ، وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، وجاء فى آية أخرى من فضة وفى أخرى من ذهب ولؤلؤ فيعلم من هذا أنهم يحلون بالأساور الثلاثة ، فيكون فى يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ .

(٣) (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) أى ويلبسون رقيق الحرير وغليظه مما نسج من سلوك الذهب ، وهذا لباس المترفين فى الدنيا ، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم .

واختير اللون الأخضر ، لأنه أرفق بالأبصار ، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار ، وجعل لون السماء الزرقة ، لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا ، وقالوا : ثلاثة مذهبة للحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن .

(٤) (متكئين فيها على الأرائك) أى يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور ، وهذا دليل على منتهى الراحة والنعيم كما يكون ذلك فى الدنيا .

(نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أى نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم وحسنت منزلا ومقيلا .

ونحو الآية قوله : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) .

شرح المفردات

الجنة : البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر ، وكل مادة (ج ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى نحو ذلك ، أعناب : أى كروم منوعة ، وحففناهما بنخل : أى جعلنا النخل محيطا بهما مطيفا بحفافيهما : أى جانبيهما ، يقال حفه القوم : أى

طافوا به ، ومنه قوله : «حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، أكلها : أى ثمرها ، ولم تظلم : أى لم تنقص ، والنَّهَر لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ثمر : أى أنواع من المال يقال ثمَّر فلان ماله وأثمره : إذا نماه. قال الحرث ابن كَلَدَة :

ولقد رأيت معاشرا قد أثمروا مالا وولدا

والصاحب : المصاحب لك ، يحاوره : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان ، أن تبيد : أى تفنى وتهلك ، قائمة : أى كائنة متحققة ، ومنقلبا : أى مرجعا وعاقبة ، سوّاك : أى عدلك وكملك إنسانا ، لكنا هو الله ، أصل التركيب لكن أنا هو الله ربى (دخله نقل وحذف) لولا : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ماشاء الله : أى ماشاء الله كائن ، حسبانا من السماء : أى مطراعظيما يقلع زرعها وأشجارها والصعيد : وجه الأرض ، وزلقا : أى تصير بحيث تزلق عليها الرجل ؛ والمراد أنها تصير ترابا أملس لاتثبت فيه قدم ، والغور : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، وأحيط بثمره : أى أهلكت أمواله ، يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ثم استعمل فى كل إهلاك ، ويقلب كفيه ، هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، خاوية : أى ساقطة ، يقال خوت الدار : تهدمت وخوّت وخويت خيّا وخُوِيًّا : خلت من أهلها ، والعروش : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، منتصرا : أى ممتنعا بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن

يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر حتى لايؤذوهم بمناظرهم البشعة ، وروائحهم المستقذرة ، وحتى لايقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، و يتحدثون و إياهم حديث الندّ للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم وخفض من عزتهم — ففى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لاينبغى أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل، وأنه كثيرا ما يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، و إنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى — مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا .

وخلاصة ذلك — إن أرضه جمعت القوت والفواكه ، وهى متواصلة متشابكة، فلها منظر ورواء حسن ووضع أنيق يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

روى أن أخوين من بنى إسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وأنفق المؤمن ما ورثه فى وجوه الخير وطاعة الله ، وآل أمرهما إلى ما قصه الله علينا فى كتابه .

وسواء أصحت الرواية أم لم تصح ، فإن ضرب المثل لايتوقف على صحتها .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، من قِبَل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها

ولم تنقص منه شيئا فى سائر الأعوام على خلاف ما يعهد فى الـكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواما وتقل أعواما أخرى .

(وفجرنا خلالهما نهرا) أى وشققنا وسط الجنتين نهرا كبيرا تتفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما وتكثر غلتهما .

(وكان له ثمر) أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمّرها بمـا ادخره من غلات الجنتين ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك — إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ، ثاغيها وراغيها ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والـكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجعه الحديث ، مذكرا له بالإيمـان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا تقوم بالذبّ عنى ودفع خصومتى ، وتنفر معى عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخرا على صاحبه المسلم وأراه عِيانا ما يتمتع به من المناظر البهيجة فى تلك الجنان التى لاتفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله :

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة) أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه ، هاتين الجنتين وطاف به فيهما مفاخرا وقال حين عاين ما فيهما من أشجار وثمـار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا ولا تخرب — كما قال وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور : ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالمـا لنفسه ، إذ وضع الشىء فى غير موضعه ،

فقد كان أليق به أن يكون شاكرا لتلك النعم ، متواضعا لربه ، لا أن يكون كافرا به ، منكرا لما جاء به الوحى وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك — إنه لحقه الخسار من وجهين .

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

(ولئن رددت إلى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا) أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، والذى جرأه على هذا الطمع وعلى تلك اليمين الفاجرة - اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر «وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » .

وخلاصة ذلك — إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها ، قال ذلك طمعا وتمنيا على الله وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

(قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟) أى قال له صاحبه المؤمن واعظا وزاجرا عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان ، وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال وأحكمه على حسب ما تقتضيه الحكمة - فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة — كيف تجحدون ربكم ، ودلالةُ خلقكم على وجوده ظاهرة جلية

يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه ولا مستندا إلى شىء من المخلوقات ، لأنها مثله ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(لـكنا هو الله ربى) أى لـكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف بالوحدانية والربوبية وأقول هو الله ربى .

(ولا أشرك بربى أحدا) فهو المعبود وحده لا شريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجّز الله عن البعث فقد جعله مساويا لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك ثم زاد فى عظة صاحبه فقال له :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله لاقوة إلا بالله) أى هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ــ حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والـكائن ما قدره الله ، ليـكون ذلك منك اعترافا بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوة إلا بالله ، إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو بمعونة الله وتأييده .

وبعد أن نصح الـكافرَ بالإيمان وأبان له عظيم قدرة الله وكبير سلطانه ــ أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا فقال :

(إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) أى إن ترنى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ويجعل مابى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطرا من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك — إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر إما بآفة سماوية أو بآفة أرضية وهى غور مائها ، وكلتاهما تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

(وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ـ فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحدا .

والخلاصة — إنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معا ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ليتنى لم أشرك بربى أحدا .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه أو رد المهلك له ، من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصرا بقوته عن انتقام الله منه بإهلاك جنته .

وخلاصته — إنه لا يقدر على نصره إلا الله ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله :

(هنالك الولاية لله الحق) أى فى مثل هذه الشدائد والمحن ـ النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره .

(هو خير ثوابا وخير عقبا) أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم وكانت سبب

شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا - ضرب مثلا لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) .

شرح المفردات

المثل الصفة ، وهشيما : أى يابسا متفتتا ، تذروه ، أى تنثره وتفرقه، ومقتدرا: أى كامل القدرة ، والباقيات الصالحات:هى الأعمال الصالحة كلها ، وثوابا : أى جزاء .

المعنى الجملى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن من كنوز الجنة » .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « خذوا جُنَّتكم ، قيل يا رسول الله من أى عدو قد حضر ، قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله

والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات ، وهن الباقيات الصالحات » .

الايضاح

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح) شبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيما متفتتا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغترّنّ أهلها بها ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله ، ولا يستكبرنّ بها على غيره ، فإنما هى ظل زائل ، وفى الحديث : « الدنيا كسوق قام ثم انفض » .

(وكان الله على كل شىء مقتدرا) أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادرا على كل شىء إنشاء وإفناء وإعادة ، فهو يوجد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال ، فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعر خده استكبارا .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مرّ من المثل فقال :

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليسا من زاد الآخرة ، وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء ، فلا ينبغى التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس — من قِبَل أن الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد وبذا يبقى النوع الإنسانى ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم ، دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغى التفاخر به فقال .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للانسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ومساعدة البائسين وذوى الحاجات ـ خير عند ربك من المال والبنين جزاء ، وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) .

شرح المفردات

بارزة: أى ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار ، وحشرناهم : أى سقناهم إلى الموقف من كل أوب ، فلم نغادر : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر وهو ترك الوفاء ، وعرضوا: أى أحضروا لفصل القضاء ، صفا: أى مصطفين ، موعدا: أى وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه، ووضع الكتاب : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب ، مشفقين : أى خائفين ، والويل : الهلاك ، وياويلتنا : أى ياهلاك أقبل فهذا أوانك ، أحصاها : أى

عدّها ، حاضرا ، أى مسطورا فى كتاب كل منهم ، ولا يظلم ربك : أى لا يتجاوز ماحده من الثواب والعقاب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغى أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته فى جنات تجرى من تحتها الأنهار – أردف ذلك بذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين وترك ما نهى عنه مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

الإيضاح

ثم ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أمورا :

(١) (ويوم نسير الجبال) أى واذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ونسيرها فى الجو كالسحاب وتجعلها هباء منثورا كما قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض سطحا مستويا لا عوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » وقال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » .

(٢) (وترى الأرض بارزة) أى وترى أيها الرائى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا شىء من الجبال ولا شىء من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

(٣) (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس حفاة عراة غُرْلا (الغرلة القلفة) فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » زاد النسائى فى رواية « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ولما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

(٤) (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى يعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا كما قال : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لا شىء معكم من المال والولد ، ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

وفى هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى ينادى يوم القيامة: ياعبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وفى الحديث الصحيح « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعى وينفذهم البصر » والحديث له بقية .

(بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) أى ما كان ظنكم أن هـذا واقع بكم ولا هو كائن ، وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه ، فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

(٥) (ووضع الـكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعا نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم وظهور ذلك لأهل الموقف ، خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

(ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الـكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟) أى ويقولون حين وقوفهم على ما فى تضاعيفه : يا حسرتنا على مافرطنا فى جنب الله ، ما لهذا الـكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها ؟ فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » وقوله : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وما مثل النفس إلا مثل الزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تلتقطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ورأينا صوره كما هى من حسن وسىء ، وفضيلة ورذيلة ، فتفعل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل امرئ يراها يقرؤها والناس فيها سواء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) مثبتا فى كتابهم ، خيرا كان أو شرا كما قال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » الآية . وقال : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » .

(ولا يظلم ربك أحدا) من خلقه ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب

من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع وتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة ، وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر ، ومن ثم لايعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد فى عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً » وقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » .

وخلاصة ذلك — إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظة له فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلما ، كما لاتعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلما ، ولا المرض بعد الشرب من الماء الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظلما ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) .

شرح المفردات

فسق : خرج ؛ يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، أفتتخذونه ، الهمزة فى مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يفعل مثل ذلك ، والذرية : الأولاد وبذلك قال جمع من العلماء ، منهم الضحاك والأعمش والشعبى ، وقيل المراد بهم الأتباع من الشياطين ، والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » وقال : « هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ » والعضد : أصله ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا ، فدعوهم : أى فاستغاثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يغيثوهم ، والموبق : مكان الوبوق : أى الهلاك وهو النار ؛ يقال وبق وبوقا كوثب وثوبا : إذا هلك ، مواقعوها : أى داخلوها وواقعون فيها ، ومصرفا : أى مكانا ينصرفون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم وقالوا كيف نجلس مع هؤلاء ونحن من أنساب شريفة وهم من أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء ؟ - قفى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه إلى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه إذ قال « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ، فأنا أشرف منه أصلا ونسبا فكيف أسجد له ؟ تنبيها إلى أن هذه الطريقة السالفة هى بعينها طريقة إبليس ، ثم حذر سبحانه منها فى قوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ) .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

الإيضاح

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم أن قلنا فى سورة البقرة : إن الملائكة عالمَ من العوالم الغيبية لانعرف حقيقتهم ، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء على لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إليهم ، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين كما ورد فى الحديث « إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لا نعرف حقيقته، بل نؤمن به كما ورد ولا نزيد عليه شيئا . وكلنا نشعر بأنا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير ، ووجه للباطل أو الشر — بأن فى نفوسنا تنازعا وكأن هاجسا يقول افعل ، وآخر يقول : لاتفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذى أودع فى النفوس ونسميه قوة وفكرا — لايبعد أن نسميه ملَكا إن كان يميل إلى الخير ، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر ، والسجود : الخضوع والانقياد ، وكان تحية للملوك عند بعض القدماء كما جاء من سجود يعقوب وأولاده ليوسف ، والسجود قسمان : سجود العقلاء تعبدا على الوجه المخصوص ، وسجود سائر المخلوقات لمقتضى إرادته تعالى كما قال « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » .

والمعنى — واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام اعترافا بفضله ، واعتذارا عما قالوه فى شأنه من نحو قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى واستكبر .

ثم بين السبب فى عصيانه ومخالفته للأمر فقال :

(كان من الجن) أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بينهم متصفا بصفاتهم ، بدليل أنه قال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ولأنه تعالى أثبت له فى هذه الآية ذرية ونسلا والملائكة لاينسلون ، ولأن الملائكة لايستكبرون وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لايعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك ما مدحوا به ، لكن طاعتهم طبع ، وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ما ذكر وهما ملكان .

على أنه لادليل على أن هناك فروقا جوهرية بين الملائكة والجن بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هى فروق فى الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لانعلم حقيقتهم ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

(ففسق عن أمر ربه) أى فصار فاسقا كافرا بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق إباء .

وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نُتِجَ عن كونه من الجن ، إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم (وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) وإن كان منهم من أطاع وآمن .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان فقال :

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟) أى وبعد العلم بما صدر منه من القبائح لاينبغى لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى تطيعونهم بدل طاعتى وهم لكم أعداء .

وجملة المعنى — كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم

بجميع ما أنتم فيه من النعم ، من لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل حين .

(بئس للظالمين بدلا) أى بئس البدل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لا يحصى من الفواضل .

ثم بين السبب فى عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية فى أنفسهم بعد بيان خباثة أصلهم فقال :

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، فكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وقصارى ذلك — ما أطلعتهم على أسرار التكوين ، وما خصصتهم بخصائص لا تكون لسواهم ، حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ليس لى فى ذلك شريك ولا وزير .

(وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى وما كنت متخذ من لا يهدون إلى الحق أعوانا وأنصارا ، لأنهم يضلون فمتبعهم يجور عن قصد السبيل ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم ؟ .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال :

(ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر: نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى ، لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ما عبد من دون الله ، فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم ، فلم يغيثوهم .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » وقوله « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ » وقوله « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وجعلنا بينهم موبقا) أى وجعلنا بين المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا ـ موضعا للهلاك وهو النار حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوه للشفاعة .

(ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى وعاين المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ولم يجدوا بدّا من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك ، فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزايلونها ، إذ قد أحاطت بهم من كل جانب .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) .

شرح المفردات

صرفنا : أى رددنا وكررنا ، والمثل : الصفة الغريبة ، والجدل : المنازعة بالقول ؛ ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، وسنة الأولين: الإهلاك بعذاب الاستئصال، والقبل (بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل، ليدحضوا به الحق : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحضت رجله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، وما أنذروا : أى ماخوفوه من أنواع العقاب ، ونسى ماقدمت يداه، أى لم يتدبر عواقبه ، أكنة : أى أغطية واحدها كنان ، أن يفقهوه : أى أن يفهموه ، وقرا : أى ثقلا فى السمع ، الموعد : يوم القيامة ، موئلا:أى ملجأ؛ يقال وأل فلان إلى كذا وألا ووءولا: إذا لجأ إليه ، القرى : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شبهات المبطلين ورد عليها بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا ترد ــ قفى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يبق منهم على ظهر الأرض أحدا ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعدا لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويرعوون عن غيهم .

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه « أن النبى

صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال (ألا تصلّيان) فقالت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قالت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئا ، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » .

الإيضاح

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد وضحنا للناس كل ما هم فى حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم ، ليتذكروا فينيبوا ويعتبروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لكنهم لم يقبلوا ذلك ولم يرعووا عن غيهم وعنادهم واستكبارهم وعتوهم .

ثم بين سبب هذا العتوّ وتلك المماراة فقال :

(وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) أى وكان الإنسان بمقتضى جبلته أكثر شىء مراء وخصومة لاينيب لحق ، ولا يزدجر لموعظة ، والمراد بذلك خصومة الأمم لأنبيائهم وردهم عليهم ما جاءوا به كما حكى الله عنهم من قولهم « إِنْ هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ » وقولهم « يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » وشديد تعنتهم كما حكى عنهم بنحو قولهم « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل مجادل لما أوتيه من سعة الحيلة وقوة المعارضة واختلاف النزعات والأهواء وقوة العزيمة إلى غير حد ؛ فلو اتجه إلى سبل الخير وتاقت نفسه إلى سلوك طريقه ارتقى إلى حظيرة الملائكة ، ولو نزعت نفسه إلى اتباع وساوس الشيطان انحط إلى الدرك الأسفل ولحق بأنواع الحيوان ، يفعل مايشاء غير مقيد بوازع من الدين ولا زمام من العقل وصادق العزيمة .

ولما بين سبحانه وتعالى إعراضهم ذكر علة ذلك فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) أى وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البينات الواضحة والدلالات الظاهرة وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة عما فرط منهم من الذنوب - إلا تعنتهم وعنادهم الذى جعلهم يطلبون أحد أمرين :

(١) إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

(٢) وإما أن تأتيهم بأنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا حين وجودهم فى الدنيا كقولهم « يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقولهم « ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصادِقِينَ » .

ولما كان مجىء ذلك بيدالله وأمره مفوض إليه لا إلى الرسول نبه إلى ذلك بقوله:

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله ورسله بجزيل ثوابه فى الآخرة ، وينذروا أهل الكفر به وتكذيب رسله بعظيم عقابه وأليم عذابه ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الظالمون من أممهم الآيات بعد ظهور المعجزات ، ويطلبوا منهم مالاقبل لهم به .

ثم ذكر أن من شأن المشركين كثرة الجدل للرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى ويجادل أولئك المشركون بالباطل كقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم: أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر ماشأنهم ؟ وعن الرجل الذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ، وما أشبه ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذى جاء به الرسل عليهم ، لا كشف حقيقة تفيد فى دين أو دنيا .

وخلاصة ذلك — إن الرسل ما أرسلوا للجدل والشغب بالباطل ، بل بعثوا للبشارة والإنذار ، وأنتم تجادلون بالباطل لتدحضوا الحق الذى جاءكم به رسولى .

(واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) أى اتخذوا الحجج التى احتج بها عليهم ، وكتابه الذى أنزله إليهم ، والنذر التى أنذرهم بها العقاب والعذاب ــ استهزاء وسخرية كقولهم : « إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » وقولهم . « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » .

ولما حكى عنهم خبيث أحوالهم وصفهم بما يوجب الخزى والنكال فقال :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ؟) أى لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله ، ودلّ بها على سبيل الرشاد ، وهدى بها إلى طريق النجاة ، فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ما عمله من الكفر والمعاصى أى لم يتفكر فى عواقبه ، ومن ثم لم يتب منها ولم ينب إلى ربه .

ثم علل ذلك الإعراض والنسيان بقوله :

(إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إن ذلك الإعراض منهم بسبب أن جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا ما ذكّروا به ، وجعلنا فى آذانهم ثقلا لئلا يسمعوه ، والمراد أنه لايدع شيئا من الخير يصل إليها ، فهى لاتعى شيئا من الآيات إذا تليت عليها .

ذلك أنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد بما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال ، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، فأصبح بينهم وبين سماع الحق حجاب غليظ ، فلا ينفذ إلى السمع شىء مما يسمع سماع تدبر واتعاظ ، ولا إلى القلب شىء مما يقال فيعيه وينتفع به كما قال: « كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » وقال : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وقد تكرر هذا المعنى فى غير موضع من الكتاب الكريم : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه أثر هذا الختم على القلوب فقال :

(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أى ومهما كررت أيها الرسول من الدعوة إلى الحق حرصا منك على نجاتهم وخشية نزول البلاء بهم ، فلن يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا بهديك ، لأن الله قد كتب عليهم الضلال ، بسوء أعمالهم وقبح طواياهم ، فأنَّى يفيد النصح ، وتجدى العظة ، ويرق القلب ؟

وخلاصة المعنى — كأنه صلى الله عليه وسلم حرصا منه على هداهم قال : مالى لا أدعوهم رجاء أن تنكشف تلك الأكنة ، وتمزق بيد الدعوة ، فقيل له — وأنى لك ذلك ؟ فإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا أبدا .

وقد جاءت هذه الآية فى قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركى مكة .

ثم بين أنه سبحانه لايعجل العقوبة لعباده على مايجترحون من الفسوق والآثام رجاء أن ينيبوا إليه فقال :

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أى وربك أيها الرسول غفور لذنوب عباده ، ذو رحمة واسعة بهم ، إذا هم أنابوا إليه ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه ، فيرحمهم واسع الرحمات ، ويتجاوز لهم عن عظيم الخطيئات ، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصى كإعراضهم عن آياته ، ومناصبتهم العداء لرسله ، ومجادلتهم بالباطل — لعجل لهم العذاب فى الدنيا وأنزل بهم عذاب الاستئصال جزاء وفاقا لقبيح أعمالهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا الباب .

ثم أبان أن هذا إمهال لا إهمال فقال :

(بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) أى بل لهم موعد ليس لهم منه محيص ولا ملجأ يلجئون إليه من عذابه .

ثم ذكر ماهو كالدليل على ما سلف فقال :

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكناهم لما ظلموا فكفروا بآياتنا ، وجعلنا لهلاكهم ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذابنا فأهلكناهم به ، وهكذا جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك الذين لايؤمنون بك موعدا لهلاكهم إذا جاء أهلكناهم كما هى سنتنا فى الذين خلوا من قبلهم من أضرابهم من سالف الأمم .

قصة موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا .

مقدمات تشرح هذا القصص

(١) مَن موسى ؟

أكثر العلماء على أن موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران نبىّ بنى إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة المعروفة والشريعة ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إنه ما ذكر الله موسى فى كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان شخصا آخر سمى بهذا الاسم لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وتزيل الشبهة .

(ب) ما أخرجه البخارى ومسلم فى جماعة آخرين عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : إن نَوفا البِكالى بن فُضالة ابن امرأة كعب من أصحاب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال كذب عدو الله .

وذهب أهل الكتاب وتبعهم بعض المحدّثين والمؤرخين أن موسى هنا هو موسى ابن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إن موسى بعد أن أنزلت عليه التوراة وكلمه الله بلا واسطة ، وحج خصمه بالمعجزات العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر الأنبياء ـ يبعد أن يبعثه الله بعد ذلك ليستفيد علما من غيره ـ وردّ هذا بأنه لايبعد بأن العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعضُ أشياء ، فيحتاج فى تعلمها إلى من دونه ، وهذا مشاهد معلوم .

(ب) إن موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر وذهابه إلى التيه توفى ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته ، ولو كانت هذه القصة معه لاقتضت خروجه من التيه، لأنها لم تكن وهو فى مصر بالاتفاق .

(حـ) إنها لو كانت معه لاقتضت غيبته أياما ، ولو كان كذلك لعلمها الكثير من بنى إسرائيل الذين كانوا معه ونقلت لتوافر الدواعى على نقلها ، ولم يكن شىء من ذلك ، فإذاً لم تكن معه ـ وردّ هذا بأنه قد يكون موسى عليه السلام خرج وغاب أياما ، لكن لم يعلموا أنه ذهب لهذا الغرض ، بل ذهب ليناجى ربه ، ولم يقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع ، لعلمه بقصور فهمهم ، فخاف من حط قدره عندهم ، فأوصى فتاه بكتمان ذلك .

وعلى الجملة فإنكارهم لايؤبه به ، وهو جائز عقلا وقد أخبر به الله ورسوله .

(٢) مَن فتاه ؟

فتى موسى — هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، لأن الخدم أكثر ما يكونون فى سن الفتوة ، كما يطلقون على العبد فتى ، وفى الحديث الصحيح « ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى » وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

(٣) مَن الخضر ؟

الخضر (بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) بن ملكان ، والأكثرون على أنه كان نبيا ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) قوله : « وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا » والرحمة : النبوة بدليل قوله : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

(ب) قوله : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً » وهذا يقتضى أنه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(ح) إنه قال له موسى : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ » والنبى لايتعلم من غير النبى .

(ى) إنه قال : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي » أى بل قد فعلته بوحى من الله ، وهذا دليل النبوة .

(٤) أين كان مجمع البحرين ؟

مجمع البحرين — هو المكان الذى يجتمع فيه البحران و يصيران بحرا واحدا ، وفيه رأيان :

(ا) إنه ملتقى بحرى فارس والروم (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند باب المندب) .

(ب) إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطى عند طنجة قاله محمد بن كعب القرظى (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق أمام طنجة) .

وسيأتى رأى آخر للبقاعى .

وليس فى الكتاب الكريم ما يدل على تعيين هذين البحرين ، فإن جاء فى الخبر الصحيح شىء فذاك ، و إلا فيجمل السكوت عنه .

شرح المفردات

لا أبرح : أى لا أزال سائرا ، والحقب (بضمتين و بضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما : أى مكان اجتماعهما ، سربا :

أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، نصبا : أى تعبا وإعياء ، أوينا : أى التجأنا نبغى . نطلب ، ارتد : رجع ، على آثارهما : أى على طريقهما الذى جاءا منه ، قصصا : أى اتباعا من قولهم أثره إذا اتبعه ، رحمة : هى النبوة هنا ، الرشد (بضم فسكون وبفتحتين) إصابة الخير ، والإحاطة بالشىء : معرفته معرفة تامة ، والخبر : المعرفة ، وذكرا : أى بيانا ، إمرا : (بكسر الهمزة) أى منكرا : من أمر الأمر بمعنى كثر والعرب تصف الدواهى بالكثرة ، لاترهقنى : أى لاتحملنى ، والعسر : ضد اليسر وهو المشقة ، زكية : أى طاهرة من الذنوب ، بغير نفس : أى بغير حق قصاص لك عليها ، والنكر : المنكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، ولئلا يؤذوهم بمناظرهم البشعة وروائحهم المستقذرة ــ قفى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ليبين بها أن موسى مع كونه نبيا صادقا أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيرا ونذيرا وهو كليم الله ــ أمر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه مالم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته — إن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيبا ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يردّ العلم إليه تعالى فأوحى إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتا فى مكتل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر ــ فاتخذ سبيله فى البحر

سربا - وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النصب ، ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمره الله به ، فقال فتاه : إنى نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ماسترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) أى واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لا أزال أمشى حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين أو أسير دهرا .

وسبب قوله هذا : أن الله أوحى إليه أن عبدا من عبادى بمجمع البحرين عنده من العلم مالم تحط به ، فأحب أن يرحل إليه .

وخلاصة ذلك — إن الله أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال لا أزال أمشى حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا أو أمضى دهرا طويلا حتى أجده .

ومجمل الأمر أنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر مهما طال به الزمان .

(فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فانطلقا يمشيان ، فلما بلغا مجمع بينهما وهو المكان الذى وعده الله بلقائه عنده - نسيا حوتهما فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكا وصار الماء كالقنطرة عليه ، فكان ذلك للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

ولا شك أن حياة الحوت بعد موته كانت لموسى معجزة ، وأما كون ماء البحر

صار كالقنطرة عليه أو كأى وضع آخر ، فليس بالواجب علينا أن نعتقده إلا إذا ثبت بالنص القاطع .

روى أن موسى عليه السلام أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة ، فأخذ حوتا وجعله فى مِكتل (قفة) ثم انطلق ومعه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين ناما واضطرب الحوت فى المكتل وخرج منه وسقط فى البحر .

روى البخارى ومسلم أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا (حوتا) ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ ذلك فجعله فى مكتل ، وقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيرا ، فبينا هما فى ظل صخرة إذ تسرّب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

وحدث محمد بن إسحق عن الزهرى عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك : « ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير الحوت الذى فيه ، فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال ذلك ما كنا نبغ » .

(فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى فلما جاوزا ذلك المكان المقصود من مجمع البحرين ، وسارا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد وارتفع النهار أحس موسى بالجوع ، حينئذ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا تعبا ونصبا من ذلك السفر .

وقد كان من الحكمة فى حصول الجوع والتعب له حين جاوز المكان أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد .

(قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) أى قال له فتاه : أرأيت ما حدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التى بمجمع البحرين ؟ إنى نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت ، إنه حىّ واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا . وذاك أن مسلكه كان كالطاق والسَّرَب ـ وما أنسانى ذكره إلا الشيطان .

(قال ذلك ما كنا نبغ) أى قال موسى : ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت ما كنا نطلبه من حيث إنه أمارة للفوز بما هو المقصود بالذات .

(فارتدّا على آثارهما قصصا) أى فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه يتبعان أثرهما اتباعا حتى أتيا الصخرة .

قال البقاعى — إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملا لاعلامة فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند دمياط أو رشيد من بلاد مصر ، ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فيه سفينته للتعدية كما ورد فى الحديث ، فإن الطير لايشرب من الماء الملح اه .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى بين لموسى عليه السلام أن موضع هذا العالم مجمع البحرين ، وأن علامة وجوده فى المكان المعين انقلاب الحوت الميت الذى فى المكتل حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما اضطرب الحوت فيه ووثب فى الماء وقد أمسك الله إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق أو الكوّة حتى سرى الحوت فيه ، فلما جاوز موسى وفتاه المكان المعين وهو الصخرة بسبب النسيان ، وسارا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال الفتى : أرأيت ما وقع لى من الحوت حين لجأنا إلى الصخرة فاتخذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا إذ انقلب من المكتل وصار حيا وألقى نفسه فى البحر على غفلة منى ، وإنى نسيت أن أبلغك خبره ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، قال موسى ذلك الذى كنا نطلبه،

لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر ، فرجعا فى طريقهما الأولى إذ علما أنهما تجاوزا الموضع الذى يقيم فيه ذلك العالم .

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟) أى فوجد موسى وفتاه عند الصخرة حين رجعا إليها عبدا من عبادنا وهو الخضر مسجى بثوب أبيض ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ؟ فقال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال هل أصحبك لتعلمنى مما علمك الله شيئا أسترشد به فى أمرى من علم نافع وعمل صالح ؟ .

(قال إنك لن تستطيع معى صبرا) يا موسى ، فإنى على علم من الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علمكه لا أعلمه .

ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة فقال :

(وكيف تصبر على مالم تحط به خُبْرا ؟) أى وكيف تصبر وأنت نبى على ما أتولى من أمورٍ ظواهرُها منكرة و بواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لايتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك ، بل يبادر بالإنكار .

(قال ستجدنى إن شاء الله صابرا) معك غير منكر عليك .

(ولا أعصى لك أمرا) تأمرنى به غير مخالف لظاهر أمر الله .

(قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) أى قال له الخضر : إن سرت معى فلا تفاتحنى فى شىء أنكرتَه على حتى أبتدئ بذكره فأبين لك وجه صوابه ، فإنى لا أقدم على شىء إلا وهو صواب جائز فى نفس الأمر وإن كان ظاهره غير ذلك ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) أى فانطلقا يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها فعرف أهلها الخضر من بينهم فحملوهم بغير أجر ، حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها حين توسطوا لُجة البحر إذ أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة .

(قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ؟) أى قال موسى للخضر : لقد جئت عظيما منكرا ، ثم أخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق .

(قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا) أى قال الخضر : ألم أقل لك يا موسى إنك لن تستطيع صبرا معى فيما ترى مما أفعل .

(قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى قال موسى للخضر لاتؤاخذنى بما غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ، ولا تضيق علىّ أمرى ، ولاتُعَسِّر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) أى فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ، يمشيان على الساحل فأبصر الخضر غلاما يلعب مع لداته وأترابه فقتله ، ولم يبين القرآن كيف قتله ، أحزّ رأسه أم ضرب رأسه بالجدار ، أم بطريق آخر ؟ وعلينا ألا نهتم بذلك إذ لو علم الله فيه خيرا لنا لذكره .

(قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟) أى قال موسى عليه السلام للخضر : أتقتل نفسا طاهرة من الذنوب بغير قتل نفس محرمة ؟ وخص هذا من بين مبيحات القتل كالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان ، لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام .

(لقد جئت شيئا نكرا) أى لقد جئت شيئا تنكره العقول وتنفر منه النفوس .
وقد أتى هنا بقوله (نكرا) وهناك بقوله (إمرا) لأن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ، لأن هذا لم يكن إهلاكا لنفس إذ ربما لا يحصل الغرق ، وفى هذا إتلاف النفس قطعا ، فكان أنكر .

وإلى هنا تم تفسير الجزء الخامس عشر فى الليلة السادسة عشرة من شعبان المعظم سنة ثلاث وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث